

عزيزي الله

رحلتي من الإيمان إلى الشك

مواطن مجهول

عزيزي الله ،

رحلتي من الإيمان الى الشك

مع ملحق –

عزيزي المسلم

مواطن مجهول

الناشر

مركز القانون العربي والإسلامي

Centre de droit arabe et musulman

Ochettaz 17, Ch-1025 St-Sulpice

Tél. fixe: 0041 [0]21 6916585 Tél. portable: 0041 [0]78 9246196

Site: www.sami-aldeeb.com - Email:

sami.aldeeb@yahoo.fr

الفهرس

- ملحق عزيز المسلم

كلمة الناشر

هذه رسائل موجهة الى الله وصلتني من مواطن مجهول ،
لا يريد ان يكشف عن هويته ، يعرفني ولا اعرفه ،
يتحدث فيها عن رحلته من الإيمان إلى الشك .
صاغها بصراحة غير معهودة ،
يناجي فيها ربه ويحكي له عن تجربته الشخصية مع دينه ،
يعبر فيها عن ما يدور بخاطره مما لم يسمح له مجتمعه بسماعه
فضلا عن البوح به .
بعثها لي كي أوصلها إلى الله . . . الذي لا اعرف عنوانه .

هل بلغت؟ اللهم فأشهد .

مقدمة

ملاحظة : عزيزي القارئ . . لو غيرت
عزيزي الله في ثنايا هذا الكتاب الى عزيزي بابا
نويل لما تغير شيء من محتوى كتابي هذا .

عزيزي الله ،

إقرأ باسم مخلوقك الذي خلقت ، إقرأ لمخلوقك الأكرم ، إقرأ ممن تعلّم بالقلم ما لم يعلم . . اقرأ كتابي هذا إليك ، ، أعرضه عليك مباشرة وابعثه لك دون وسيط أو ترجمان كما طلبت منا حين نتواصل معك . أعرف أن الكثير سيغضب ويثور لأني سأكتب إليك ، ، يريدون مني أن أصدّق بالكتاب الذي أرسلته لنا لكنهم يرفضون أن أجيب عليه وأردّ على ما فيه . أتقبل بذلك يا الله . . أيرضيك أن ترسل لي كتابا ولا تقبل أن أرد عليه أو أعلّق على ماجاء فيه؟ لا أظن ، ، كيف وأنت الذي تنزّل من السماء كل ليلة لترى من يسألك فتعطيه ومن يدعوك فتجيبه ... ألا يسعك أن تقرأ ردي على كتابك ؟ يقولون وما الحاجة لذلك أصلا ، فأنت تقرأ ما أريد حتى وقبل أن أفكر بما أريد بل وتعلم ما توسوس به النفس فأنت أقرب من حبل الوريد . . حسناً ، لكنك اخترتَ أن ترسل لنا كتابا كي نقرأه ولم تُلقه في قلوبنا مع أنك قادر على ذلك لو أردت وأنا أفعل الشئ نفسه ، ليس لأني قادر على أن أفعل أكثر من ذلك فحدّي هو الكتابة ولا أملك أكثر من ذلك . لا أحسبك يارب تمانع أن أرد على كتابك الذي أرسلت . لكن مالهم وما لنا فهذا كتابي لك ، هو شأن خاص بيني وبينك ، يمكنهم أن يُعرضوا عنه ويتركوه أو يطّلعوا عليه ويقرؤوه فليس بيني وبينك أسرار ، ياعالم الأسرار ، أخجل من سردها لك أو حجبها عنك فأنت الذي تعلم النيات وما تخفي الصدور . أعرف أن البعض سيقول مادام أنه شأن خاص فلِمَ تعرضه على العامة ، وأقول أنه ليس لدي مانع وأعرف يارب أنه ليس لديك مانع كما أن ناشر كتابي هذا ليس لديه مانع أيضا من نشر رسالتي لك . . ثم أنك لستَ مُلكا لأحد

ولا حكراً على جماعة كي تستأثر بك وتدّعيك لها ، هو كتاب مفتوح مثلما أن كتابك مفتوح للجميع .

عزيزي الله ،

أرجو أن تسمح لي في بداية حديثي هذا بمناداتك باسمك الذي أعرفه والذي عرّفت نفسك به من دون كلفة أو رسميات . . أيضايقك أن أناديك هكذا من دون تكلّف أو اصطناع؟ أتزعجك كلمة عزيزي حين أخاطبك بها مباشرة من دون وسطاء ، هل تتحسس منها وتريدني أن أغيرها مثلا الى حبيبي أو صديقي أو ربما سيدي أو مولاي أو ذو الجلالة كما اعتاد أتباعك وألِفوا؟ هل اختيار المفردة في سرد حديثي ستغيّر من تواصلي معك . . وهل الطريقة التي أناديك بها ستؤثر في قبولك بي أو إعراضك عني؟ أرجو أن لا يكون الأمر كذلك . لنسقط الكلفة بيننا وندع الرسميات حتى ولو غضب أتباعك فالحديث بين المحبين أجمل وأصدق حين يكون عفويا وتلقائيا وبعيدا عن التزلف والمثاليات . وُلدت كغيري في بيئة تدين لك بالولاء ومن عائلة محافظة في الدولة التي استمدّت شرعيتها بالدفاع عنك واتخذتْ من كتابك ناموسا كما تزعُم ، تقتدي به كما تدّعي وتُلزم من يقيم على ترابها باتباعه دون أن تستشير أحدا منهم في ذلك . ملكها يسمي نفسه بخادم بيتك ويرعى مصالحك كما يقول ويتخذ من أتباعك موقّعين عنك نيابة عنك لتفسير كتابك للناس وشرح كلامه وبيان معناه . نشأتُ في كنف دولتك التي تكفلت بحماية أصولك وممتلكاتك الفكرية وتشبّعت بالحديث عنك وحولك ولك . . هذا باختصار من أكون ومن أي طائفة ودين هو لك أنتمي له .

بدأت معي بذرة التساؤل عنك في سن مبكر . . كنت حينها أدرس في الصفوف الأولى حيث كان معلم التوحيد يتحدث عنك ومن تكون وأين تكون وأنه ليس كمثلك شيء وكيف أنشأتنا من لا شيء ، وعن تصميمك الهندسي الضخم ببنائك الفخم لملكوت السموات والأرض في ستة أيام ، ستة أيام فقط لا غير . . يكررها علينا في كل درس من كل اسبوع ومن كل شهر حتى نحفظها عن ظهر قلب والويل لمن ينسى حفظه . أصدقك القول أنني لم أهتم كثيرا بما كان يقوله لنا

عنك حينذاك . . كنتَ بعيدا عني بالرغم من تأكيده بأنك أقرب لنا من حبل الوريد وأنك تسمع كلامنا ووشوشاتنا وهمساتنا وما يخطر ببالنا قبل أن نلفظ به، بل وقبل أن يخطر بنا. لم يفهم عقلي الطري آنذاك -وحتى الآن- كيف يمكن لأحد أن يعرف ما يخطر ببالي قبل أن يكون خاطرا. اعذرني لقول ذلك لكني لم أهتم كثيرا بك ولم ألقِ لك بالا فقد كنت أنتظر سماع صوت الجرس معلنا نهاية الحصة، فكما تعلم لم يكن بمدارسنا ما يجذبنا لها نحن الصغار فضلا عن الكبار الذين يقومون بتلقيننا ماتم تلقينهم به من قبل. أرجو أن لا تنزعج حين أقول أن حصص التاريخ والجغرافيا بأحداثها وتواريخها وأماكنها كانت أكثر تشويقا وإثارة وواقعية من مادة التوحيد التي وضعها أحد أبنائك المخلصين من أجلك ولك كي نتعرف عليك وعلى عالمك الغيبي الذي لا نملك إلا أن نتخيل شخوصه الفنتازية في أذهاننا الطفولية ونحلم بتفاصيله المختفية وراء حجب من الغيب، بينما بقية المواد وضعها أبناء الطبيعة من أجلنا ولنا نحن البشر، كي نتعرف على بعضنا البعض وعلى عالم الشهادة الحسي الذي نعيشه ونحسه من حولنا ونختبره عن قرب. على الأقل، كان هناك قصص أكثر واقعية وأحرى أن أصدقها من تلك التي يحكيها عنك معلم التوحيد، بالرغم من جبروت بعض الشخصيات التاريخية وتسلطها الا أن أيّ منها لم يكن يدّعي أنه يعرف ما يخطر ببالي يارب.

آه، نسيت أن أخبرك عن أول تساؤل لي عنك . . أذكر جيدا معلم التوحيد حين يأتي على ذكر قدرتك الفائقة في الخلق والرزق يدلّل على ذلك بفقرة من كتابك. نعم، لا أنسى حين يُتبع حديثه ب "والدليل قوله تعالى" ثم يستحضر جملة كريمة من كلامك "إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام". لا أكتمك القول أنه وبالرغم من صغر سني في ذاك الوقت الا أنه لم يفتني حينها أن أتساءل وبدهشة مكتومة كيف أستدلّ على وجود شيء ما بحديث ذاك الشي عن نفسه في كتاب منسوب له؟ لو صدّقت أساسا بكتاب ذلك الشي وأنه منه وبما يقوله عن نفسه لما احتجت الى دليل على وجوده. أرأيت يا الله كيف يُبرهن على وجودك بكلام من كتاب يحتاج هو أصلا الى برهان بأنه من عندك. . ربما هي

واحدة مما يسمى اليوم بالمغالطات المنطقية . على أية حال ، تلك كانت أول بذرة سألتُ عقلي فيها عنك ومن تكون وفكرت ثم احترت فيك ثم تركت التساؤل عنك بعدها لوقت طويل ، طويل جدا . لم يختلف ما لُقّنته عنك آنذاك عن ماسمعته من اساطير وقصص خرافية تحُكى لنا إما لإخافتنا فنلزم البيت كقصص السعلوّة أو تهويدة عن حصان مجنح لنسكن وننام ، فالحد الفاصل بين الجنّ والسعلوّة أو بين الملائكة والحصن المجنحة إنما هو خط باهت متحرك في الرمال . كبرتُ قليلا ولاحظت نبرة الجدّ حين يأتي الحديث حول القصص التي نسجها الناس حولك يارب ثم تطور الأمر قليلا لأفهم معنى القداسة وأراها تُلصق بقصصك فقط وتنتفي عن الأساطير الأخرى حتى اذا قاربت البلوغ وعيت أن التكذيب بوجود الجن هو كفر بينما الكفر بالسعلوّة هو عقل .

لا أدري من اختار لك هذا الاسم الرباني . . الربّ؟ أشدّ على يد من اختار تلك الكلمة لك فقد كان يعي جيدا ما يصنع . لإسمك هذا أثرٌ عليّ وعلى أصحابي الصغار ، فضلا عن الكبار ، فهناك جرس غريب في موسيقى تلك الكلمة لا يخفى على السامع . هي ليست كالله التي لا يستخدمها سواك بل رب . . نعم ، رب ، هكذا حرفين صغيرين يمكن أن يستخدمها غيرك ليدل على ملكيته وحوزه لمتاع ما ، لكن حين تتسمّى بها أنت وتدعو نفسك بها يصبح وقعها على الأذن مجلجل رنّان ، كصوت جوقة موسيقية تصدح في عزف سيمفوني بمسرح اغريقي . تحوى تلك المفردة من الأبّهة والفخامة والعظمة ما لا تحويه غيرها من الكلمات . . انظر كيف نضيفها لغيرها ونصنع منها عوالم تليق بعظمتك وجلالك كرب الأرباب أو رب العالمين أو رب المشرقين ورب المغربين . حين تسمع تلك الكلمة ، لاسيما وهي مضافة لغيرها ، لاتملك إلا وأن تحس بالاحتواء والسيطرة ، بالجبروت والعظمة ، بالرعاية والعناية . . كل ذلك في آن واحد .

يتردد على مسامعنا اسمك وتنبس الشفاه بذكرك وتهفو القلوب صوبك ، أجدك في كل مكان وفي كل زمان ، في لوعات المفارقين وآلام المكلومين ، في آهات المحبين وخفرات العاشقين وفي زفرات المرضى وأنّات المحمومين ، في صياح الصغير ونداء

الكبير، في عيون الأمهات وارتعاش العجائز. بالبيت هناك من يحلف باسمك وفي المسجد من يستشهد بجلال قدرك وعظيم سلطانك وفي المتجر من يطلب من فيض نعمك وفي المشفى من يرجوا لطفك وعافيتك. أوّل الحروف والكلمات التي تعلمتها هي من كتابك وأول صف اصطففته كان صلاة لك وأول وجهة ولّيتها كانت لبيتك.. تعلمنا عنك الكثير في صغرنا، عن اسمائك وصفاتك وعن أنواع توحيدك وعن ربوبيتك وألوهيتك، تعلمنا عنك الكثير ولم نعلم شيئا عنك فأنت ليس كمثلك شيء. هكذا قيل لنا فأنت الواحد الذي ليس له ثان، أنت الأول والآخر، الظاهر والباطن، المبدئ والمعيد، القابض والباسط .. مفردات والفاظ تصلح للإنشاد والترتيل وحتى الغناء، حفظتها عنك من أول وهلة لطراوتها وسهولة حفظها. أول حروف قرأتها وأول كلمات تعلمتها هي من قصار السور بكتابك .. أتدري أنه أحيانا أظن أني أعرف عنك أكثر مما تعرفه أنت عن نفسك، أيمكن ذلك يا الله؟ سأشرح ما أعنيه بذلك لاحقا لكن أرجو الآن أن تبقى معي ويتّسع فسيح لطفك لمناجاتي وطول صبرك لكلماتي فأنت الذي يمُهل ولا يُهمل، أما الأولى فيشترك فيها معك كل مختفٍ عن الأنظار وخاملٍ عن الأفعال وأما الأخرى فهي التي عليها الكلام ومحور هذا الكتاب مني لك.

عزيزي الله،

عشت خمسون سنة من عمري لا يفوتني فيها صلاة مكتوبة قيل لي أنها فريضة، أتيت اليك مشيا على أمل أن تأتي لي مهرولا، تقربت لك بالنوافل على أمل أن تقترب مني بحبك لي وتفيض علي من نور سناك، عسى أن تصبح سمعي الذي أسمع به وبصري الذي أبصر به ويدي التي أبطش بها ورجلي التي أمشي بها. يآآه .. لو أنّ يدك هي يدي وعينك هي عيني، تصوّر كمْ من الفرص التي يمكن أن أقتنصها والأحوال التي سأعيشها بيد رب وعين اله، وكيف ستكون الحياة التي أنت امتداد لها عبر كياني الضعيف. ناجيتك بالليل وأطراف النهار .. لم أتوقف لحظة وأنا أقف بين يديك لأسأل نفسي عنك. من تكون وماذا تكون وكيف تكون، من ذا الذي أحني رأسي في حضوره وأمرّغ جبهتي في الأرض من

أجله وأتذلّل خوفا منه وطمعاً في رجاه؟ أأنت مرعبٌ ومخيف لهذه الدرجة يا الله . . هل تتلذذ ونحن نرتعش خوفا منك؟ هل تجدُ متعة في سجودنا لك؟ ما الذي تشعر به بالضبط حين أتلو بعضا من آياتك أو أثني ركبي راكعا في محرابك مسبّحا باسمك . . هل تحس بشيء ما . . أي شيء؟ أتشعر بقشعريرة يقف لها شعر يديك إن كان لك شعر؟ ألك قلب ينبض مثلما لك يد وعين وساق كما ينقل عنك رجالك؟ أيجرى الدم في عروقك . . إن كان لك دم وعروق؟

أتعرف أني في صغري كنت أظن سجودنا يزيدك قوة وأنه كلما زاد عدد الساجدين ازددتَ طاقة وكأننا نشحن بطارية ضخمة موصولة بك وأن دعائنا يمنحك توهّجا وضياء فوق ما أنت فيه وكأنك في حاجة لزيادة عدد أتباعك لتبقى مضيئا متلألئاً فكلما قلّ عدد مريديك كلما كان هناك خطر عليك أن تنطفئ مصابيحك وتفرغ بطاريتك ويخفت نور جلالك. كبرتُ قليلا ثم نسيت، حتى تذكرت تلك الفكرة الغريبة حين بدأت أسمع وأرى من يتحدث دفاعا عنك وعن دينك ويطلب النصرة لك ويدعو لزيادة أتباعك، عادت لي تلك الفكرة القديمة. أتحتاج لمن يدافع عنك يا رب ويقف في صفك؟ هل أنت في حاجة لجنود من خلقك توظّفهم لشحن بطارياتك وإضاءة مصابيحك . . أتخشى أن تنطفئ الكهرباء عنك يوما حين يتوقف الناس عن السجود لك؟ أنظر اليوم لتجد الكثير في عالمنا ممن يقف مدافعا عنك ومقاتلا في سبيلك ورافعا رايتك ليموت تحتها وهو يزعم وصلا بك، تسيل الدماء أنهارا دفاعا عن حماك وذودا عن حياضك . . كيف يكون ذلك يا رب وأنت الذي لا تحتاج لغيرك؟ كيف يصطفّ أتباعك دفاعا عنك وأنت ذو الجبروت والملكوت . . أنت القوي العزيز ونحن الضعفاء، أنت المهيمن المسيطر ونحن الأتباع؟

أنهيت مراحلي الدراسية الأولى وبقيتَ يا رب في مكانك العلي، كنتُ كغيري أحدّثك في صلاتي ودعائي من دون أن أقترب منك ومن يُطيق الاقتراب منك وقد جعلتَ الجبل دكا حين تجلّيت بعد أن طلب أحدهم النظر اليك. لم أهتم كثيرا بكونك البعيد عنا والقريب منا فأنت فوق ونحن تحت، أجرّ قدمي الى باب

بيتك وأطأطأ رأسي عند محرابك وأمرّغ جبهتي في أرضك. أشاهد أبي يغسل أطرافه كل يوم في حر الصيف وبرد الشتاء ليتجه الى بيتك ويقدم فروض الطاعة بين يديك. لم يكن يجرّني معه أو حتى يناديني لمشاركته . . كان وفياً لك من دون أن يُجبر أحدا غيره على الولوج الى باب طاعتك. لم يكن الحال كذلك مع أمي التي لم تترك فرصة حين تسمع صوت المؤذن دون أن تنهال علي بسوط الترهيب بعد أن نفذ منها جزر الترغيب، تأمرني بالاغتسال والتوجه الى بيتك . . لا أنسَ حديثها مرّة لي بعد أن أصبحتُ يافعا في رمضان وقد نمت عن الصلاة لك. تُخوفني بمصير المتأخرين عن حضور بيتك وتشعـــــــــــرني بالذنب لتخلّفي عن حضور الصلاة في محرابك، ملقية اللوم على رفيقي الجديد في سكني بالجامعة. لا ألومها يا رب في وفائها لك فهي الأخرى تم برمجتها في صغرها على الامتثال لك من دون التفكر فيك.

بدأت شخصيتي المستقلة تتبلور وتتضح أثناء دراستي الجامعية والتي أحسست فيها ببعض الراحة لإنفصالي عن بيتي الصغير وبداية تعرفي على بيتك الكبير . . على العالم الطبيعي عبر العلوم الحديثة القائمة على المنهج العلمي. أنت تعرف جيدا أن نظامنا التعليمي العام هو من أجلك ولك، غايته فهم كتابك وتقديس أوليائك ومن أعظم أهدافه تقييدنا بدينك وغرس أفكار أتباعك في صفحات عقولنا الصغيرة وسلْبنا من أي نزعة للتفكير الحر وأي محاولة للنقد والتساؤل، والاكتفاء بالنقل والتلقين، فما ترك الأولون للآخرين شيئا ثم بدأت أعي نفسي في الجامعة بشكل آخر لم أعهده من قبل. تعلمت علوما من غير صنف قال الله وقال أتباعك، علوما تفترض الجهل ابتداء بدلا من العلم، وتثير الأسئلة بدلا من صك الإجابات وتنطلق من الشك قبل اليقين. تُخضع المسائل لــــــــــــــلتجربة وتُنشئ الفرضيات وتلاحظ ما يدور في الطبيعة بحثا عن المعرفة وتصحّح ما سبقها وتعدّل فيه وتضيف عليه . . ليس هناك من مقدّس أو منزّه، محراب العلم هو مختبر العالِم ونظرياته وكراريسه، يثير بها الأسئلة فإثارة الأسئلة تعني الحياة أما الأجوبة فهي النهاية. عندما لا يبقى شيء وتفرغ الرؤوس من التفكير تحل محلها الإجابات . . رجالك يهتمون بالأجوبة كثيرا على حساب السؤال

وتراثهم ملئ بذلك فهناك الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية، الأجوبة العثيمينية على الأسئلة الليبية، الأجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية، الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة، الأجوبة الألبانية على الأسئلة الاسترالية وطبعا هناك الأجوبة المسكّتة . . في سلسلة لا تنتهي من إجابات جاهزة قاطعة بل ومُسكتة لا تحتاج معها الى ما بعدها . . بينما العلم طريقه إثارة الأسئلة.

لم يتركني أتباعك في دراستي الجامعية والتي كانت بالفعل تطورا نوعيا في طريقة تفكيري ونظرتي للعالم من حولي إذ بدأت معها في التعرف على العلوم الحديثة بعد أن قضيت شطرا من حياتي كان مفهوم العلم فيه إنما هو معرفة كتابك ومايتبعه من شروح ونقول . . أقول ذلك الآن وإلا فإني وقتها لم أعِ ذاك التحول في شخصيتي، لكن رجالك كانوا واعين لخطر ذلك التحول في شخصية الشاب على دينك وهم أذكى من أن يتركوا خلقك ممن بدأ في الانفتاح على طرق التفكير السليم والانعتاق من طرق التلقين القديم بحال سبيلهم فيسعون للوصول لهم عن طريق تجيير ما تكشفه العلوم لصالحهم. يُسمّون ذلك إعجازا علميا وكأن كتابك قد أصبح بعد قرون من صدوره دليلا من دهاليز المختبرات وكرّاسا من أوراق المعامل. ليس لهم من شغل سوى الانتظار والترقب لما يكشفه العلم ثم ما يلبثوا إلا وينسبوا ذلك لكتابك ويجترّونه جرّا من آياتك خشية أن يفتتن الشباب بسلطة العلم وحلاوة المعرفة وشهوة الاكتشاف . . بل إن هناك من اتّخذ الهدنة معك بعد أن ساوره القلق مما يمكن أن يكشف عنه العلم وأعلن أن العلم والدين صنفان متوازيان ولا يجتمعان.

أتخشى يا رب من العلم وأنه قد يسحب البساط من تحت قدميك؟ أيشكّل لك منافسة وتحدي قد تزول معها سلطتك ويخفت بها صيتك ؟ أتظن أن ما سيكشفه العلم قد يصادم ماجاء في كتابك أو يعارضه أو ينفيه؟ كيف تخشاه مع أنه لم يدّعِ يوما أنه ينافسك أو يريد أن يحل محلك أو يجلس على عرشك ويستولي على ملكك، هو يشقّ طريقه بهدوء ويرفع سراجه منيرا ليُخرج الناس من ظلمات الجهل الى نور المعرفة. عاش خلقك في ظلام دامس منذ ظهور الأديان التي

استطاعت أن تسيطر على عقول الناس وتتحدث عنك موقّعة باسمك، أنت رب العالمين، حتى بدأت شعلة الثورة العلمية تظهر قبل بضع قرون. هل اهتز عرشك اليوم وأنت ترى الظلمات تنحسر شيئا فشيئا عن عقول الخلق الذين اكتووا بتفسيرات كتابك وذاقوا بأسهم بينهم لتنقشع الغشاوة عن أعينهم، أم أنك ضامن موقعك لأن الإنسان محكوم عليه بالضعف والهوان مهما بلغ من علم، وبالتالي فهو في نهاية المطاف إنما سيلجأ لك مادّا يديه الى السماء ليغطي نقصه في كل حال . . أنت يا إله الناقصين والضعفاء.

اختلط الأمر على كثير من أتباعك لا سيما في النصف قرنٍ الماضي مع سرعة تواتر ما يكشفه العلم وما تُلقي به معامله ومختبراته من تكنولوجيا أفادت البشرية وساهمت في رفاه البشر واطالت معدل عمر الإنسان وقضت على كثير من الأمراض وقرّبت البعيد حتى إنّ سدنة ما يسمى بإعجاز كتابك العلمي لم يعودوا مقبولين إلا عند السذّج من الناس، أما البقية فلم يبقَ لهم الا أن ينضموا الى مدرسة المعتذرين الذين يحاولون التوفيق بين ما يقوله أتباعك عن كتابك وما تقذف به مختبرات العلم الحديث وما أحسبه الا تلفيقا وليس توفيقا، لن أنسَ هذه الكلمة العجيبة التي سمعتها لأول مرة في صفوف التعليم الأولى. كيف نوفّق بين آية هنا وآية هناك من كتابك؟ لم يكن حينها السؤال يختص بالمواءمة مع ما أنتجه العلم الحديث بل موائمة للكلام نفسه في كتابك، بين سورة وأخرى أو مقطع وآخر في إشارة الى التناقض بين شيئين أو ما يبدوا تناقضا كما قيل لنا . . كلام البشر يطرأ عليه العيب والنقصان لكن كلام رب البشر، كيف لا يكون كاملا؟ لم أفهم، وأنا الطفل الصغير، كيف يُطلب مني أن أقوم بالتوفيق في كلام يقول عنه صاحبه بأنه رب الكلام؟ هل تحتاج يارب الى ترقيع كلامك من تلميذ مدرسة ليوفّق ويوائم بين جمله المتناقضة . . أتغيّر كلامك يا رب وتحتاج الى خلقك كي يخترعوا لك ناسخ ومنسوخ ليعدّلوا من حديثك ويصحّحوه؟ أتقول شيئا ثم تنسى لتأتي بما يبدو مخالفا له . . أيطرأ عليك النسيان يا من لا يضل ولا ينسى؟

أتباعك يقولون أنك تنسخ ما قلت من أجلنا وتستعمل التدرّج لراحتنا ، مثلك في ذلك مثل الطبيب الذي يصف جرعة من الدواء ثم لا يلبث لاحقا أن يزيد أو ينقص منها تبعا لحالة مريضه . لكنك أنت الله ولست أحدا منا ، ألا يمكنك أن تفعل أفضل من ذلك . . وتأتي بكلام أكثر كمالا وأفضل سبكا مما قلت؟ كتب البشر ، كل الكتب ، تشترك في كون القارئ ، أي قارئ ، ينتهي من قراءتها ويبقى في باله شيء بعد قراءتها يستطيع أن يقترحه على الكاتب . . كان يمكن إضافة شيء هنا أو هناك أو تعديل هذا أو ذاك ، أو أن هنا ما يحتاج الى تبسيط وهناك ما هو بسيط ، ولا أجد كتابك يارب يخرج عن هذا . دع عنك ما يقوله الناس من أتباعك فإنما هم يرددون ما يقال لهم . . كتابك من المطوّلات ولا أحب الكتب المطوّلة ، سوره متفاوتة ، منها الطوال ومنها المئون ومنها ما دون ذلك من المثاني والمفصّل . لو أنك اختصرته أو أضفت له ملحقا قصيرا تضع فيه لب رسالتك وما تودّ أن تقوله بإيجاز . فوّتّ فرصة المقدمة أن تضع فيها خلاصة رسالتك حين بدأت بكلام جميل استفتحت فيه بإقرأ ، لكن مالبثت أن دخلت في مهاترات جانبية تطعن فيها بنسب أحد من خلقك . . أيعقل هذا منك ؟ ثم أين التواريخ في كتابك يا رب؟ تركت شيئا من أهم الأشياء التي نحتاجها حين نقرأ ، إذ فقدنا الإطار الزمني لكل المرويات التي وردت في ثنايا كلامك . قصص عظيمة لا نعرف أين تقع في خط الزمن . . أيرضيك هذا ، تتركنا من دون معرفة لها؟ في كتب البشر يُسندون الأحداث الى تواريخها والوقائع الى زمنها ، لا سيما الهامّ العظيم منها وأنت لم تفعل ذلك . . لمَ يا رب؟ أكنتَ غير واثقٍ من تاريخها أو شاك به ، أم أنك أصلا لا تعرف متى حدثت؟

حين أنظر الى البوم صوري ، أندم على تلك الصور القديمة التي أهملتُ كتابة تاريخها وأتمنى لو عرفتُ متى التقطت . . خطاباتي أفضل حالا فكلها مؤرخة بل وحتى الأحداث والمناسبات التي ترد في ثناياها هي الأخرى مؤرخة لكنك تركت هذه المادة الأساسية وأغفلتها من كتابك . لمَ لمْ تخبرنا منذ متى ظهر آدم؟ أهو قبل ألف عام من كتابك أو عشرة الاف أو ربما مائة الف من السنين أو أكثر من ذلك أو أقل . متى خلقتَ الأرض ومتى حدث الطوفان ومتى بعثتَ نوح

وابراهيم والآخرون . . ومتى ومتى ، ماذا تفيد الأزمنة التي ذكرتها كالفجر والصبح والضحى والعصر أو الليل والنهار . . أتخشى لو أنك ذكرت تواريخ ثم اكتشفنا اليوم عدم صحتها أن تفقد أتباعك؟ لا أظن ذلك ، فهناك المعتذرون الذين سيلفّقون ، أقصد سيوفّقون بين ما هو مذكور في نصوص كتابك وما هو مكتشف من صفحات الطبيعة التي لا تكذب ولا تجامل أحدا . . هل كنت تتوقع ظهور المعتذرين؟ سيزيدون يا رب مع انتشار العلوم وانحسار الجهل بين العامة من الناس مثلما ظهر المعتذرون عند النصارى بعد الثورة العلمية . أصبح دينك اليوم كالإناء المكسور إزاء العلوم الحديثة . . كل يحاول ترقيعه يا رب حتى صار هشّا ينتظر من يلقي عليه بحجارة الرحمة الأخيرة كي يتهشم . لكن لا تخش يا رب من ذلك فسيبقى الإناء متماسكا في عقول مريديه لأنهم يخافون عليك يا رب؟ كم أنت محظوظ بهم . . أتدري يا رب أنه مهما كشف العلم من أسرار ونزعها من دائرة الظلام التي نسبها الدين لك ستجد هناك من يفضل التعلق بك لأن هناك دائما ما هو لغز وطلاسم تنسج حولك ، والناس تعشق الأحاجي والألغاز يا لغز الألغاز .

القرآن

عزيزي الله ،

كيف يا رب العالمين ويا مالك الأكوان ويا عالم الأسرار ومنشئ الزمان والمكان ، يا منشئ السحاب الثقال ورب الرياح والجبال ، يا صانع عطارد والمريخ وبقية الكواكب والمجرات ، يا خالق السماوات بغير عمد ، يا عالما بنواميس الكون واعوجاج الزمن وخفايا الأفلاك وثقوبه السوداء ، يا باقيا بعد الفناء ، كيف يا معلم الإنسان ما لم يعلم ، يا من دلّه الى قوانين الطبيعة وهداه الى علوم الأرض وجعله يغوص في المحيطات وينتقل بمركباته بين أجرام السماوات . . كيف ترسل لنا كتابا فيه "جاء أحد منكم من الغائط" أو "فلمّا قضى زيد منها وطرا" أو "تبّت يدا أبي لهب" أو "ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا" أو "والخيل والبغال والحمير لتركبوها" وفيه جراد وقمل وبعوض وعناكب وذباب وطيور ونمل يتخاطب مع إنسان . . أيعقل أن يكون هذا هو مبلغ أسلوبك في الحديث الينا وطريقتك في الكلام معنا؟ إنما هذا أشبه بكلام البشر للبشر ، بل إنّ هناك الكثير من كلام البشر ما هو أفضل وأحسن وأرقى من هذا بمراحل . أليس هناك أفضل مما خاطبتنا به ثم إني لست أفهم ما التحدي الذي تعلنه بأن نأتي بأفضل من ذلك وكأنك أحد من البشر يتفاخر بقوله قصيدة ما ويتحدى غيره أن يأتوا بمثلها . أنت تعرف جيدا أنه لن يجرؤ أحد على محاكاة ما قلته لوجود سيف مسلّط على رقاب من يحاول وإلا لو تُرك الأمر للناس دون خوف وترهيب لوجدت منهم مثل ما قلته في كتابك وأعلى مرتبة ثم حينها دع الحكم للمحايدين . كنت أحسبُ أنك أجلّ وأعظم من ذلك يابديع السماوات ، ثم هل يسري عليك التحدي وكأنك أحد الشعّار يلقي قصيدة له في مسابقة ما ليتحدى بها غيره . ألم يكن من الجلال والسمو أن تبعث كتابك دون الدخول في تحديات

ومساجلات مع خلقك . . حتى الملوك من البشر يترفعون عن الدخول في مهاترات مع العامة حين يخاطبون شعوبهم .

ثم ما لك يا رب وأبا لهب ، ولمَ كل هذا الحقد على الرجل المسكين وامرأته اللذين تركتَ ملكوتك العظيم لبرهة من أجل أن تضمّنه في كتابك لنا وتفرد سورة له؟ هل نافسكَ فيما تملك أو آذاك بشيء أو ربما كدّر خاطرك . . أم تراه سابَبك فحملتَ في نفسك ما حملت وأحسست بعقدة من ذلك نحوه . أين كن فيكون عنه ، ولمَ لمْ تسلّطها عليه بدلا من نشر حبل غسيلكم هذا على الملأ ، . . سبّني وسببته ! ثم لنفترض أنه شتمك فعلا ، أتقوم أنت رب العالمين بسبّه كالصغار عندما يتلاسنون ، بل حتى الصغار لا يفعلون ذلك ، إنما هم يتخاصمون قليلا ثم يعودون أصدقاء كما كانوا ، لا يفعل ذلك الا بذيء الكلام من أصحاب الفاحش من القول . . أيعقل منك هذا يا رب؟ لو كنتُ باعثٌ خطابا لأحد من أصحابي وهناك من بيني وبينه خصومة لترفّعت عن ذكره في ثنايا كلامي ولامتنعت عن سبه في كتابي لأني احترم ذاتي كما أحترم وأقدّر من أكتب له ، حتى ولو كانت نفسي تستعر من الغضب تجاه من آذاني وأبحث عن من أنفّس له بمكنون صدري لربما ذكرته في كتابي بدون أن أسميه . . ألا يمكنك أن تكون أفضل من خلْقك يا رب؟ بل إن الأمر تعدى ذلك الى درجة أن هناك من أتباعك من يتخذ من سبابك لأبي لهب دليلا يثبت به أنك علام الغيوب ، إذ كان بإمكان صاحبك ، لو أراد ، أن يعود في كلامه ويعتذر منك وبالتالي يبطل حكمك عليه . . ولكنه لم يفعل . يآه ، يا لها من طريقة ليبرهن بها على صدق حديث رب الأرباب . . تسبّ أحدا من فوق عرشك وفي ملكوت عليائك ثم ننتظر نحن الخلق الضعفاء على هذه الأرض فإن لم يعد ذاك المسكين ليعتذر فمعنى ذلك أن دينك يا رب قد اجتاز الاختبار وأصبح موضع الثقة عند متلقيه ! أتدري يا رب ، حتى لو عاد صاحبك عن رأيه وصدّق بما تقول فلن يعجزك أن تفرد له آيات أخرى تنسخ بها ما قد وصفته وتعيد الأمور الى نصابها .

قيل لنا أن كلامك مُعجز يا رب . . دُبّجت الأسطر وأُلفت الكتب وأُلقيت الخطب في بيان إعجاز كتابك وآياته ومفرداته ومعانيه وقصصه وحكاياته وكيف أنه خارق للطبيعة، أفنى الكثير أعمارهم في ترديد ذلك . . أتراه أنت كذلك؟ أتصدّق هذا القول عن كتابك وأنه حدث فوق العادة، أم أن هذا من إدّعاء أتباعك؟ ما هو المعجز يا رب في "ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا" أو "فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم " أو "تبت يدا أبي لهب" أو "حم عسق" أو "والخيل والبغال والحمير لتركبوها" . . أهناك شيء مُعجز في ذلك ؟ أهناك شيء خارق في الكلام أو في الحروف أو في النغم أو في المعنى أو الصورة، أم أنه كلامك وكفى؟ دع عنك الأفكار التي زُرعت في عقولنا عنه نرددها منذ الصغر نقلا عن من سبقنا، وأزل حاجز الخوف من الاضطهاد . . ختمتُ كتابك عشرات وربما مئات المرات، قرأت آياته وردّدت كلماته حينا في بيتي وحينا في بيتك، في صلاتي لك وفي مدرستي، في الشارع وفي الطريق . . في السيارة والطيارة . . قرأته منفردا ومع آخرين . . قرأته بأعين دامعة وأخرى جافة، في جوف الليل وفي وسط النهار. يمكنني القول الآن باطمئنان يا رب وبتجرّد، ومن دون خوف أو إكراه وبعد أن مضى من عمري أكثر من ما بقي، يمكنني القول أنني أجده كلامٌ أفضل ما يقال عنه أن بعضه جميل وبعضه عادي وبعضه أقل من ذلك، منه الغريب ومنه المخيف ومنه المملّ. هو في النهاية مثل كلام البشر، بل إن من كلام البشر ما هو أوضحُ بيانا وأجمل عبارة . . كيف لا، وكتابك قد أُلفت حوله المجلدات من كتب التفسير لبيان مقصودك منه.

قيل أن الكلام شعر ونثر ثم لما نشرتَ كتابك قالوا بأنه لاهذا ولا ذاك وإنما هو قرآنا يتلى . . كذلك أيضا هو شعر التفعيلة الحر، فلا هو بالمقفى ولا هو بالنثر. أتدري أني أجد في كلام المعري وشعره "غير مجدي في ملتي واعتقادي" و "ما أظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد " . . أجد في ذلك ما هو أمتع قولا وألطف عبارة وأجزل حديثا وأعظم شأنا بكثير من بعض آياتك. أكاد أجزم بأن "رُب

لحدٍ قد صار لحداً مرارا ضاحكٍ من تزاحم الأضداد " أشد وقعا على النفس في الصلاة وأكثر خشوعا وأتمّ سكونا من "تبت يدا ابي لهب" . أتدري يا رب كيف هو كلامك والأجواء التي صنعتها في كتابك . . هو مثل من يعيش في عالم من أفلام الخيال العلمي تنشق فيه الأقمار وتتأجج فيه البحار من الاشتعال ويرى المركبات الفضائية وهي تنقل البشر بين الكواكب والمجرات في دقائق معدودة وتطير بهم الى السماوات العُلى في ثوان قليلة ويشاهد المساكن الغريبة ووسائل النقل العجيبة في عالم من الفانتازيا الغيبية ثم فجأة يتوقف عن القراءة ليعود الى واقعه . . الى خيمةٍ يسكنها وناقة ترعى حولها . قرأت كتابك وما هو بالشعر ولا بالنثر بل شيء بين بين . . تلذّذت بقراءته أحيانا واستمتعت بسماعه أحيانا لا سيما حين يقرأ منه أحد المقرئين المصريين أمثال عبد الباسط أو المنشاوي . . بعض تعابيره جميلة وبعضها قاسية وبعضها بليغة وبعضها رتيبة وبعضها مؤثرة وبعضها مملة وبعضها مطمئنة وبعضها مرعبة وبعضها عادية وبعضها أقل من العادي واكثرها مكرر . حفظت منه لصلواتي وتلوتُ بعضه في خلواتي زهاء خمسون سنة . . لكني لم أفهم ما المعجز فيه وما أحسب كلام الناس عنه وتعظيمهم لما فيه إلا ترديد لما تم تلقينهم به . انظر كيف تغتسل استعدادا لقراءته في طقوس شرعتها لهم يارب "وما يمسه الا المطهرون" ، هو مثل لوحة علقتها في بيتي ووضعت عليها غطاءً لا أزيحه ليراها الرائي حتى يغتسل أولا أو يقلم أظافره ويأخذ شيئا من شعره أو يتفل عن يساره ثم أقنعتُ بعض زائري بأنها من رسم علام الغيوب ثم وزعت منها الملايين على أن يلتزم الجميع بنفس الطقوس قبل ان يزيحوا الستار عنها كي يروها . . أحسبُ أن سيكون لها شأن أكبر من لوحات دافنشي مجتمعة .

ثم ما تلك الأحكام التي أطلقتها والتشريعات التي سننتها في كتابك لمن اقترف جرما بحق غيره من جلد وقطع ورجم وقتل . . تقطيع للأيادي وسياط على الظهور وجز للرقاب ورجم بالحجارة حتى الموت ثم يأتي بعد ذلك أتباعك ليقولوا لنا أن هذا من رحمتك بنا وتطهير لنا وأنك أرحم بالعبد من الأم بولدها !

ما نوع الجنون الذي أصاب أتباعك ليحسبوا هذا رحمة وتطهيرا؟ وأي نوع من المخدر يتناولوه ليشيعوا بأن هذا من لدن حنانك وعطفك؟ أيعقل أن تطلب منا أن نقيّد إنسانا أو ندفنه في الأرض ثم نرميه بالحجارة لتنهال عليه الضربات حتى يلفظ أنفاسه ويسيل دمه . . أي نوع من البشاعة والوحشية الهمجية تلك التي يقوم فيها البشر بهذا الصنيع؟ أتدري أني أشعر بالغثيان الآن من ذكر ذلك بل إني قد أمضيت أسابيع وشهورا وأنا صغير لا أستطيع النوم من الكوابيس التي كانت تصيبني حين أتخيل بشاعة هذا المنظر بعد أن لقننا إياه معلم الفقه ، لا يمكن أن أتخيل فعل ذلك بقط أو كلب فضلا عن آدمي . . ولمَ؟ لأنه نام مع من يحب في فراش واحد وتصادفً أن كان مطلّقا أو أرمل ... اثنان بالغان عاقلان مسالمان ، لم يؤذيا أحدا ولم يرفعا سلاحا ولم يمارسا عنفا يعيشان لحظة حب في حالهما . . ما لك ولهما؟

يقول المعتذرون عنك أنّ تلك الأحكام إنما تلائم الوقت الذي أرسلتَ فيه كتابك حيث لا سجون ولا شرطة ولا حكومة مركزية وإنما صحراء مفتوحة ترعى فيها الإبل والدواب طليقة فالحاجة ماسة الى غلظة العقوبة حتى ولو كان ذلك بقطع يد أحدهم حين يسرق مثلا ليكون عبرة تزجر بها الآخرين ممن قد تسول أنفسهم التعدي على ملك غيرهم . حسنا ، كل ذلك قد تغير اليوم بانتهاء ذلك الزمن المتوحش حيث تطورت الحكومات والدول وأصبح هناك سجون واصلاحيات ومحاكم وشرطة بينما بقيت آياتك يؤمن بها اتباعك كما هي ويقولون عن كتابك الذي أرسلت لنا بأنه صالحٌ لكل زمان ومكان كما يزعمون؟ إن كان هذا صحيحا فلم أتباعك اليوم لم يعد يطبقون تلك الأحكام البشعة؟ ألأنها لم تعد مقبولة تلك الحدود التي شرعتها في عصور الظلام قبل ألف وأربعمائة عام ولا تليق بإنسان القرن الواحد والعشرين . . أيصبح البشر اليوم يارب أكثر إنسانية ورأفة ورحمة في أحكامهم منك ؟ حتى دولة الحرمين لدينا لم تعد تقطع الأيادي وترجم الناس . . لم يعد يفعل ذلك سوى مجانين دولة الخلافة الداعشية في بلاد الرافدين التي تُوصم حتى من أتباعك بالوحشية مع أنها إنما تطبق كتابك بحذافيره وتفاصيله من قطع ورجم وسبي وهي الأقرب والأصدق في تجسيد آياته

ومعايشة رسالته وما نقد أتباعك لتلك الجماعة إلا في شرعيتها وليس في شريعتها التي استقتها من كتابك .

عزيزي الله ،

كيف استطعت أن تجمع بين المتعارضات وترسّخ في عقول أتباعك المتباينات ليعوذوا بك منك ، أنت غافر الذنب قابل التوب لكنك شديد العقاب . أنت الرحمن الرحيم لكنك الجبار المنتقم ، أنت الودود الرؤوف لكنك الرقيب المتكبر ، أنت القهار لكنك السلام . . أنت الضار والنافع ، الخافض الرافع ، أنت الأول والآخر ، الظاهر الباطن . . أنت اله المتناقضات . في ثنايا كتابك تقول كلاما ثم في موقف آخر تقول كلاما يبدو متناقضا . . تقول لا مبدّل لكلماته وتقول إذا بدّلنا آية مكان آية . . تقول عن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا وتقول فضرب الرقاب . . تقول لا إكراه في الدين وتقول قاتلوا الذين لا يؤمنون ، تقول وإن جنحوا للسّلم فاجنح لها وتقول فلا تهنوا وتدعوا الى السّلم . . تنتقد من يقول بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا ثم لا تجد بأسا في أن يتوارث أتباعك ما أنزلت . تجد الكثير من أشباه ذلك منثورا في كتابك الى درجة أن قد أُلفت الرسائل وصُنفت الكتب حول كيفية التوفيق بين ذلك التناقض كله . . فرغتُ يا رب قبل أيام من قراءة رواية جميلة لم أحتج فيها الى غيرها ولم أستشر كتابا أو قاموسا لفهم كلمات مؤلفها ولم أجد تناقضا بين أحداثها ووقائعها ولم أحتج للسؤال عن مراد الكاتب أو فهم مغزى قصته بينما أنت العليم الحكيم الخبير ترسل كتابا نحتاج فيه نحن البشر الى تفسير المتشابه منه وتأويل الغامض فيه والتوفيق بين ما تناقض من أجزائه ، وليت الأمر بقي على هذا الحد إذ اقتتل اتباعك ساعة وفاة نبيهم ومازالوا يقتتلون بسبب فهم كل طائفة منهم المختلف لما ضمّنته في كتابك .

لمَ لمْ تكن واضحا في كتابك الذي أرسلته لنا وضوحا لا يحتاج معه المتلقي الى تفسير مرادك منه أو بيان ما هو المقصود وما هو المنسوخ ؟ تقول فيه أنه بلسان عربي مبين وأنك قد يسّرته للذكر لكن هل هو فعلا كذلك ؟ وإذا كان بيّنا كما

تقول فلمَ إحتاجَ أتباعك الى التفاسير وتفسير التفاسير وصفوة التفاسير ولمَ ُصنّفت الكتب من أجل شرحه وبيان الغرض منه ، منها ما هو بالرأي ومنها ما هو بالمأثور . لمَ وأنت القادر فوق كل شيء بعثتَ كتابا يلجأ الناس من أجله الى صنع فنون ابتدعوها من تفسير وتأويل ومعرفة المحكم والمتشابه وهل هو وقوف على اللفظ والحرف أو اتجاه للأصول والمعاني . . كل هذا لفهم نصوص مكتوبك ومعرفة مرادك . هل تتعمد يا رب أن تكونَ غير واضحٍ فيما تقول كسباق الألغاز التي يتلاعب فيها السائل بعقول المجيبين ؟ أيصعب عليك وأنت خالق القلم وما يسطرون واقرأ باسم ربك الذي خلق . . أيصعب عليك أن ترسل كتابا لا لبس فيه ولا غموض لتقطع على دابر القوم أي فرصة لاستغلال كلامك أو تفسيره حسب أهوائهم أو تكييفه مع مصالحهم . ثم ما دام أنه للبشر كافة ، لمَ استخدمت لغة العرب فقط ، حتى ولو كان رسولك عربيا ؟ ألم يسعك أن ترسل منه نسخا بلغات العالم وقت نزوله ، واحدة باليونانية وأخرى بالصينية وثالثة بالفارسية مثلا . . أليست رسالتك للعالم أجمع ؟

يقول أتباعك أن كتابك تشريع رباني فما هو التشريع الذي أنزلته من السماء بالضبط ، أهي آيات الأحكام مثلا من أوامر ونواهي كآية حل البيع مثلا ؟ أتظن أننا نحتاج لنص الهي منك حتى نبيع ونشتري ونص آخر يخبرنا أن لا نقتل أو نسرق أو نكذب أو يدعونا أن نوثّق العقود أو نكتب الديون أو نجتنب كثيرا من الظن . أيعقل أن لا يتوصل البشر الى معرفة هذه الأمور بأنفسهم ويحتاجون الى نصوص الهية تهبط عليهم من وراء سبع سماوات ؟ أنحتاج آية من عندك تقول ولا تجسسوا أو لا تسرفوا أو لا تأكلوا أموال بعضكم بالباطل حتى ننتهي عن ذلك ، وهل الأخلاق والسعي للخير وطلب العدل ونبذ الظلم مرتبط بنصوص مقدسة من عندك أم أن هذا مما اتفق البشر عليه وعرفوه ، يجمعهم في ذلك العيش المشترك والتواصل الإنساني ؟ ما بال أقوام من البشر لا تعرفك وتعرف هذه الأمور وأكثر منها تفصيلا مما لا يخطر على بال من نقلَ كتابك . . ما هو يا رب الشيء الذي تعرفه عنا أكثر منا حين حرّمت القتل مثلا ؟ أتظن أني لن أقتل آخر لمجرد أني قرأت ذلك في كتابك ؟ إن أكثر من يقتل بعضهم البعض اليوم في

حروب جماعية هم من أتباعك الذين يقرؤون كتابك. ما الذي تعرفه أكثر منا حين طلبت منا أن نوفي بالعهود . . هل أحتاج الى نص كهذا أقرأه في كتابك كي أطبقه حين أبدأ بصياغة عقد عمل مع أحد الموظفين؟ أليست التجربة الإنسانية والعيش المشترك والمنطق والعقل يقودني الى هذا، بل وأكثر من هذا بكثير.

لا أجد يا رب في كتابك من الأحكام والأصول العامة التي تنظّم علاقة البشر ببعضهم البعض شيئا لا يستطيع أن يهتدي له الإنسان العاقل بنفسه، بل إن معرفة الإنسان تعدّت تلك الأصول العامة والتي عرفها حتى قبل نشر كتابك. تصوّر طالبا يدرس علوما مالية في الجامعة عن الإقتصاد والتمويل والمحاسبة وقوانين الشركات وادارة المخاطر والتأمين وبعد تخرجه يلتحق بوظيفة مرموقة في مصرف ليكتشف أن نظيره الذي يعمل معه ليس لديه شئ من المعرفة يقدمه سوى بعض مفردات وكلام عام يعرفه الصغير قبل الكبير والعامي قبل المختص كحفظ المال وعدم التبذير والحاجة لتوثيق العقود وتحريرها . . أتظن أن المصرف سيجد كلام صاحبنا الثاني هذا مفيدا لهم في تعاملهم اليومي ونشاطهم مع عملائهم أم سيحيلونه على الرف منذ أول يوم يكتشفون فيه مبلغ علمه. هناك من سيقول بأن العقل والتجربة الإنسانية لن تدلنا على نوع آخر من الأحكام، تلك المتعلقة بعلاقة البشر بك مثل كيفية الصلاة لك وعدد ركوعها وسجودها وكيف نؤدي زكاة مالنا وكيف نحج لبيتك ونصوم شهرك، لكن هذه كلها ليست من الأمور الأساسية المشتركة بين البشر والتي يحتاجون لها كي يعيشوا في جماعات بسلام، إنما هي طقوس وشعائر خاصة بطائفة دينية محددة كالمسلمين مثلا في هذه الحالة. تصوّر لو أن جمعا خليطا من الناس من مختلف الطوائف والديانات غادروا بلدانهم ووصلوا الى جزيرة وسط البحر ليقيموا عليها موطنا لهم . . ما الأمر الذي عليهم أن يتفقوا فيما بينهم ويجمعوا عليه؟ أهو علاقتهم الحسية ببعضهم البعض على الأرض أم علاقتهم الغيبية بك أو غيرك مما يتوجهون له من كائنات في السماء. . هل الأهم لهم ليتفقوا عليه من أجل أن يعيشوا بسلام ويعمّروا جزيرتهم بأمان وينشؤوا عليها مدنا ومجتمعات هو لا تقتل ولا تسرق ولا تظلم

ولا تخن العهد أم هو عدد ركعات صلاتك وكيفية الوضوء والاغتسال وحكم مسحٍ على الخفين؟

قيل لنا أن نتهم عقولنا وتفكيرنا ولا نتهم من ينقل عنك لأنهم صدوقون . . أوليسوا بشرا مثلنا ، لهم نفس العقول التي لنا ولديهم نفس الحواس التي عندنا وإن أسماهم الناس أنبياء ورسل وشيوخ؟ قيل لنا أن العقل قاصر ومحدود وبالتالي لا يُعوّل على عقولنا كثيرا ، حسناً أليس أتباعك هم أيضا كذلك ... لو صدّق الإنسان ذلك واختار أن يؤمن على أن يعرف ، وعاش حياته وهو يردد أن عقله قاصر لبقي في تلك الكهوف التي كان يأوي لها قبل الاف السنين ولما غادرها متسلقا سلم الحضارة . بل قيل أن العقل سلطان ولّى النبي ثم عزل نفسه ، ونقل أهل الإيمان أن يكفيك من العقل أن يعرّفك صدق نبيك ثم يخلي بينك وبينه . أتدري يا رب أني أظن أن الإنسان كي يتدين عليه أولا أن يطفئ شيئا ما في خلايا مخه ويغلق جزءا من عقله كي يقبل بما يمليه عليه دينه ، ألم يقل أبو العلاء اثنان أهل الأرض ، . . ذو عقل بلا دين وآخر ديّن لاعقل له . اذا كان الدين متفقا مع العقل كما قيل لنا فلا حاجة لنا به ، واذا كان مختلفا معه فمن باب الأولى أن نرفضه . لا يمكن أن تؤمن حتى تُطفئ شيئا من شرارة المعرفة التي تستعر في خلايا مخك وتُسكت صوت قلبك النابض بروح البحث عن الحقيقة ، إذ ليس هناك من منطق في الدين إلا بقدر ما هناك ليل في جوف النهار .

لم أنزلتَ كتابك وبعثتَ رسلك في عصور الجهل والظلام؟ أهوَ مثلُ ما يقول أتباعك منْ أنّ الناس آنذاك كانوا في حاجة لوميض نورك تُنير به حياتهم وتُضئ طريقهم أم لأن الناس وقتها كانوا في ظلام دامس فهم أسهل انقيادا وأكثر قبولا لتعاليمك وإيمانا بمعجزاتك . ألم يكن من الأجدر أن ترسل للبشر كتابك في عصرنا هذا حين انحسر الجهل وزاد الوعي وبدأ الناس في السيطرة على مصيرهم وتغيير البيئة من حولهم وأوشكوا أن يدمّروا كوكبهم؟ ماذا لو أنك انتظرت قليلا يا رب قبل أن تبعث كتابك . . فبدلا من أن ترسل نبيك في السنة ٥٤٠ م ، بعثته في منتصف القرن الماضي وليكن بعد الحرب العالمية الثانية مثلا ، حين هلك

ملايين البشر دون أن تفعل لهم شيئا . ماذا لو كان ظهور رسولك في العام ١٩٥٢م وجاء بنفس كتابك وآياته التي نعرفها اليوم . . أتظن الناس ستقبل بتعاليمه ويصدقون به؟ أتراهم حين يروي لهم عن معراجه للسماء وانشقاق القمر وعن سفينة نوح وشق البحر سيصدقون به . . أتراهم يصدقون بقصة ابراهيم حين همّ بذبح ابنه وهو يرويها لهم أم يقولون أن مثل هذا مكانه في المصحة للعلاج ويأخذون على يديه ليسجنوه لو همّ فعلا بقتل ابنه؟ ما أظن كتابك لو ظهر لأول مرة في العام ١٩٥٢ إلا وقد أصبح كقصص هاري بوتر وتحول في نظر قارئيه اليوم من الإعجاز العلمي الى الخيال العلمي . ماذا يعني إذن أن نصدّق بكتاب صدر قبل أربعة عشر قرنا ونتخذه منهجا لنا لانقبل التشكيك في صحته ودينا نتقاتل من أجله وبين أن نقرأ نفس الكتاب لو ظهر قبل عقود بسيطة ونضعه في مكانه الصحيح وموقعه الطبيعي ، للمتعة والتسلية أو التاريخ المحض؟ هل هناك تفسير لذلك غير أننا إنما نؤمن بما زرعه فينا أهلونا ومجتمعاتنا وسلطاتنا السياسية ونردد ما قالوه لنا دون دليل أو برهان؟

يصفون كتابك بالثبات وأنه محفوظ عن التغيير من لدنك ويريدون له في ذات الوقت البقاء والاستمرار فإنما هو طبعة واحدة لم يتم تحديثها فما كُتب فقد كُتب وماقيل فقد قيل ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . . ألا يعلمون أن التغيّر هو سنة الحياة وأن الثبات هو الموت والجمود . أليست الكتب القديمة الثابتة هي اليوم في أرفف المتاحف وأدراج الكنائس يطّلع عليها السواح والمتعبدين من أجل الفرجة والتأمل بينما الوثائق الحية هي تلك القابلة للتعديل والتطوير حسب الحاجة الآنية . انظر الى وثيقة الدستور الأمريكي كم هي نبراس في قلوب معتنقيه اليوم بسبب التعديلات التي طرأت عليه مع مرور الزمن . ما بال بعضٌ مما جاء في كتابك تم تعطيله اليوم والتوقف عن العمل به بالرغم من استياء بعض أتباعك وعدم رضاهم إذ لم يعد مقبولا في ذائقة إنسان القرن الواحد والعشرين استرقاق البشر أو سبي نسائهم أو استخدام طرق التعذيب الوحشية من قطع الأعضاء والرجم بالحجارة حتى الموت . ربما كان هذا مقبولا أو مفروضا على المغلوب على أمرهم في صحراء العرب قبل أربعة عشر قرنا لكن الوضع اليوم ليس كما

كان ومن يفعل ذلك تلفظه مجتمعات البشر المدنية ويوصم بالهمجية. حتى دولة المجتمع الذي يحتضن بيتك اليوم لم يعد يطبق حفلات التعذيب الوحشية تلك.. أصبحت المرأة تعمل مثل الرجل بل وأحيانا هي التي تعيل أسرتها، فهل سيبقى مقبولا أن ترث نصف ما يرث أخوها؟ أين إذن الثبات المزعوم في كتابك، لو كان فعلا صالحا لكل زمان فلماذا لم يعد مقبولا اليوم بعضا مما فيه، هل تغيرت ذائقة السواد من أتباعك وعلت وارتقت على ما جاء فيه من نصوص؟

أصبحت اليوم وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هي الأقرب لذائقة البشر وإنسانيتهم، تحترم عقولهم وتحمي حقهم في الحياة وتصون كرامتهم وتكفل حريتهم في الاعتقاد والتعبير عن الرأي، والتحرر من الخوف والحاجة. هي أقرب ما تكون للدين الجديد الذي يلتمّ أكثر الناس بطوائفهم حولها ويتفقون على معانيها ويتخذونها نبراسا لهم بعيدا عن آياتك التي كتبت في عصور الظلام.. تنبع حقوقها من إرادة الناس أنفسهم وفهمهم لطبيعتهم ووعيهم لحالهم وليس من كتابك يا رب. تُقرّ تلك الوثيقة مبدأ المساواة بين البشر عامة دون تمييز، وأنهم ولدوا ليبقوا أحرارا وأنّ للإنسان الحق في اختيار معتقده وتغيير دينه متى ما أراد وكيفما أراد.. هي قابلة للتحديث والتطوير والتطويع بما يلائم حاجة البشر الآنية كما يفهمها البشر أنفسهم ويقررون، على عكس كتابك الذي لا يمكن تحديثه بطبعة جديدة تتناسب مع عصرنا لا سيما وأنه ليس هناك من وسيلة نعرفها اليوم للتواصل معك يا رب. طول العهد بكتابك لن يجعل منه مقدسا في قابل الأيام إلا بقدر ما يجعل العنب المعتق شرابا مقدسا عند شاربه ومع ذلك سيبقى من آيات كتابك تلك التي تتوافق معانيها مع رغبات الإنسان وأخلاقياته وطبيعته الخيّرة يتلوها الناس مثل ما يقرؤون نصوصا تاريخية أو يتغنون بها مثل ما يتغنى أحدهم بأشعار صوفية. من أجل ذلك اقترح يا رب أن يقوم احدهم باختصار كتابك وتنقيحه وليسمّه مثلا العهد الجديد، يُبقي فيه على جوهر الرسالة والآيات المسالمة التي تحضّ على الأخلاق الفاضلة كالبر والرحمة والإحسان ومواقع الحكمة والأمثال. أما الآيات التي لا تناسب عصرنا من التخويف والترويع وقطع الأيدي والرقاب والإرهاب وكره الآخرين فيلحقها في جزء

خاص منفصل ويمنع من تدريسها للناشئة، وما يتبقى من قصص النجوم المتناثرة والبحار المشتعلة فتُروى كتاريخ يحكي عن طريقة تفكير القدماء.

كتابك يارب هو كالكشكول أو الدفتر الذي يجمع فيه التلميذ قصاصات متفرقة ومعلومات مشتتة مما تعلمه ومرّ عليه كي يحفظه من الضياع ثم يعود له لاحقا لتنقيحه وتحريره وكأنه نسخة اولى لم يتسنّى له الانتهاء منه . . أيعقل أن يكون كتابك هذا هو نسخة اولى لم تفرغ بعد لإنهائها ! يمكننا أن نبدأ بقراءته من أي مكان، من أوله أو نهايته أو حتى وسطه ولا نعرف له مقدمة ولا صلب الموضوع ولا خاتمه كبقية اساليب الكتابة المفهومة. هو كلام مصفوف وعبارات تتشابه وأفكار مبعثرة وجُمل مبثوثة هنا وهناك في خليط غريب من حكايا وقصص وأوامر ونواهي وتعاليم، لا تكاد تبدأ آية وتستفتح بموضوع حتى تجد نفسك فجأة في موضوع آخر من دون رابط واضح أو صلة مفهومة بين الموضوعين. تعيد كلامك وتكرره في أكثر من موضع وتقف أحيانا فجأة لتبدأ شيئا جديدا لا صلة له بما قبله، بل إن أتباعك اخترعوا فنونا واستحدثوا طرقا لربط مواضيعه ووصل أفكاره ببعض في محاولات لا تتوقف ولن تتوقف لفهم مرادك منه وما أسباب النزول وعلم الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه الا بعضا من فنون صُنفت لفهم كتابك. هُم في ذلك أشبه بالمعلم الذي تناول دفتر تلميذه منذ خمسة عشر قرنا وهو يحاول ربط الخربشات التي فيه لفهمها ثم يأتي بعد ذلك من يتحدث عن الإعجاز البلاغي لهذا الكشكول ! أيعقل أن تكون التلميذ يارب وأتباعك هم المعلمون ؟

أرجو أن لاتضيق ذرعا يارب بكلامي عن كتابك ووصفي السابق له فكتابي هذا ليس بأفضل حال من آياتك ولا بأحسن منها، إن كان في هذا عزاء لك . . أيمكن أن أقول شيئا فيه عزاء لك يارب! ها أنذا أعيد كلامي وأكرره في أكثر من موضع وفي أحيان كثيرة أنتقل من فكرة لأخرى وموضوع لآخر دون رابط بين أو علاقة واضحة ولكن ومع ذلك، ما أنا إلا بشر يعتريني الضعف ولم أدّع الكمال يوماً يا

كامل الأوصاف ولم أزعم أن كتابي معجزٌ يا رب الكلام . أتدري يارب متى بدأ رداء القداسة المحيط بكتابك ينزاح عن كاهلي لأول مرة . . أذكر ذلك جيدا ، كنت حينها في سنتي الأولى الجامعة حين وقع نظري على نسخة من كتابك مترجمة وأخذت بقراءة بعض آياته بالانكليزية . . قرأتها مجرّدة وكأنها نص أدبي أو سرد تاريخي ، هكذا دون إدغام بغنة او ترتيل وتجويد بعد أن أفرغت منها قرونا من التمجيد والتعظيم ، فصلت حينها تعلقي بكتابك وتخليت عن روحانيته التي أعمتني عن رؤية حقيقة ما تقوله نصوصه ، مثلما يقرؤه القبطي المصري أو الماروني اللبناني دون أن يرف له جفن . ولمن لا يعرف القراءة بلغة غير العربية يمكنه أن يجرب صياغة الآيات بلهجة عامية محكية ويرى وقع معناها على سمعه ليزيل عنها حواجب ضربت حوله واثناءه بل وقبله من تطهر واغتسال قبل مسه . على أن رداء التقديس ذاك الذي كاد ينزاح قليلا عن كاهلي كان ثقيلا بحمله ، إذ مالبثتُ أن أعدت لبسه مرة أخرى ومضيت في حال سبيلي متعوذا مما اكتشفت فجأة .

وأخيرا يارب ، ، مالك واللعن ! . . تلعن من يخالفوك الرأي لمجرد أنهم غير مقتنعين برأيك ولا مصدقين لكتابك وتقول عنهم "لُعن الذين كفروا " ، "عليهم لعنة الله" ، " ويلعنهم اللاعنون" . . أيعقل هذا ؟ ينشر البشر كتبهم ويعرضوها على الناس ليقرؤوها وينتقدوا ما فيها دون أن يضمّن احدا في كتابه لعنات على من سينتقد كتابه أو يخالفه الرأي ، أيمكن أن يكون خَلقُك أرقى اسلوبا وأكثر تأدبا منك يارب ؟ وليت الأمر توقف على اللعن بل استخدمت اسلوب السباب والشتم حتى في أول سورة منه ، قفزتَ فيها الى الخصومة مع أحد مخالفيك لتسفعه بناصيته وتصفه بأقذع الألفاظ بدلا من أن تستغل بداية كتابك ومقدمته لتتحدث عن موضوع رسالتك العالمية وماذا تريد . . ثم ما ذنب ذلك المسكين الذي سفّهته وهدّدته سوى أنه عبّر عن رأيه بما سمع من آيات جديدة يسمعها لأول مرة . ما هذا الكم من الشتائم واللعن والسب . . تلعن من يخالفك وتقذفه بأبشع العبارات وتصف من يخالفوك الرأي بأنهم أنجاس "إنما المشركون نجس"

وكلاب "مثله كمثل الكلب" وحمير "كمثل الحمار يحمل اسفارا"، وحيوانات " إن هم إلا كالأنعام" أو قرود وخنازير أو مهين أو نميم بل وتعاير أحدهم بأبيه بأنه زنيم دعيّ ثم تقول "قل موتو بغيظكم" ! أيعقل هذا يا رب . . أيعقل أن تستخدم الفاحش من الكلام والبذيء من القول في حديثك عن من يخالفك؟ إنما هذا كلام البشر لبعضهم حين يكونوا سبّابين شتآمين وهو من المعيب الشائن بين خلقك ولا يرضونه بينهم وقد يجرّمون قائله ويمنعون نصوصا كهذه من أن ترد في كتب اطفالهم . . أيعقل أن تستخدم هذه الألفاظ وتلك العبارات وكأنك واحد منا؟ ألم تجد كلاما أكثر تهذيبا وألفاظا أرقى وعبارات أفضل من تلك، تتناسب مع جلالك وسموك وعلو قدرك . . أنت يا رب الكلام واله المتكلمين.

لم خلقتنا يا رب؟ . . لا ، لست أسأل عن الكون من حولنا ولا حتى عن أشكال الحياة بيننا بل عنا نحن البشر الواعون لأنفسنا . . لا تقل لي ما يردده علينا رجالك كي نعبدك ونلجأ اليك تضرعا وخيفة منك . . فما لك ولعبادتنا؟ أمن أجل أن نلصق جباهنا بالأرض عدة مرات باليوم . . أتزيد صلاتنا من قوتك أو يرفع ركوعنا من عزتك أو يتسع ملكوتك من أثر دعائنا لك؟ لا تقل لي أنك تتلذذ حين تشاهد جباهنا تهوي الى الأرض ساجدة لك ، أو تستمتع برؤية أجسادنا وهي مستلقية في محراب طاعتك تمرّغ أنوفها في ترابك وترفع مؤخراتها نحو سمائك ! أيشعرك ذلك بنشوة كتلك التي تصل فيها مخلوقاتك الى رعشة الجماع حينما تتزاوج بينها . ما الذي يجعل هذا منا إذن؟ أنصبح مثل العاهرات اللاتي يمارسن الجنس فيما يختبئ سيد البيت خلف باب زجاجي يشاهد الحدث أمامه ليصل هو الى ذروة النشوة من خلف الستار؟ ليت شعري . . ما الذي تريده منا يا رب؟

عزيزي الله ،

قرأت كتب المتقدمين والمتأخرين عنك ، قرأت كتبا بالعربية وأخرى بالإنجليزية على فترة من الوقت تصل الى أربعين عاما . . وتوصلت الى حقيقة واحدة وهي أن الدين من صنع البشر ، لا شك عندي في ذلك . الدين هو صناعة بشرية بحتة لا دخل لك بها . . أما أنت فإني أقف عن الإجابة حول سؤال وجودك ومن تكون ، فأنا لا أدري ولا أعرف . حدّي في التعاطي مع دينك هو كتابك ورسولك ومن نشره من أتباعك لأن هؤلاء بشر يسري عليهم ما يسري علي وبيني وبينهم أوجه شبه ، أما أنت يا رب فليس بيني وبينك أرضية مشتركة . أعترف بجهلي بك وعجزي عن معرفتك فضلا عن فهمك . . وأعتقد أن عدم معرفتي بك لن تضرني مثلما أن معرفتي بك لن تنفعك . من تكون ، وماذا تكون ، لا يهمني ذلك . . كن كما تريد أو بالأحرى كما يريد خلقك لك أن تكون . . لا علاقة لي بذلك ولا أريد أن يكون لي علاقة بذلك . أتباعك يؤمنون بك ، ليس لأنك

موجود . . بل أنت موجود لأنهم يؤمنون بك . إن كانوا يظنون أنك موجود فستكون وإن كانوا يظنون أنك لست بموجود فلن تكون ، فهم لا يرون العالم كما هو بل كما هم ، لكن ما دخلي أنا بذلك كله . أظن أن فكرة وجودك قد خلقها الإنسان زمن ضعفه وجهله وخوفه فالجائع حين لا يجد خبزا والمظلوم حين لا يجد عدلا والمريض حين لا يجد شفاء والمكلوم حين لا يجد مواسيا يبحث عن عزائه في اله مختفي بالسماء . تقل الحاجة لتلك الفكرة كلما أصلح الإنسان من حاله واقترب من سد الفراغات في حياته وأصبح أقرب الى تحقيق العدالة . . فلربما في مستقبل الزمن حين يتحقق ذلك ويعيش الإنسان في سلام حقيقي ويسيطر على مصيره بنفسه ، حينئذ تنعدم الشرور والآلام والحروب بين البشر وتزدهر الحياة وتثمر المتع والملذات بدون احاسيس بالذنب أو مشاعـــــــــــــر بالنقص وتصبح الأرض وقتها هي الجنة المزعومة وتختفي الحاجة لك يا رب .

لماذا يتردد رجالك المؤمنون بك في اللحاق بك يا رب حين يحين وقتهم . . أليسوا على موعد معك ومع أحبائهم الذين فارقوهم . هم أكثر الناس تعلقا بك وشوقا للقائك كما يزعمون . . لمَ تراهم يخافون من الموت ومن مغادرة دنيانا هذه . . أليس هناك سيجدون ما كانوا به يُبشّرون . . ما بالهم متعلقين بدنيانا الزائلة الزائفة كما يزعمون ويرفضون مغادرتها أكثر من غير المؤمنين؟ لست خائفا من ملاقاتك يا رب ، فرهان باسكال الذي يفرح به بعض رجالك لا يعني لي شيئا بقدر ما يعني أنهم هم أيضا يخالطهم الشك فيك مثلي . هم يتمنّون أن يكونوا الرابحين بعد مماتهم سواءً كنت بانتظارهم أم لم تكن ، وهذا شك فيك ابتداء منهم وإلا لثبتوا على إيمانهم بك يقينا ولم يتقوّلوا عليك رهانا ظنيا جعلوك فيه لا تأبه بإيمان أحد ، وكأنهم يريدون أن يؤمنوا بك على سبيل الاحتياط . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كلّ يدعى الوصول اليك بحسب دينه الذي ارتضيته له حسب زعمه ، ليت شعري من منهم ستقبل به إن كان كل واحد يدّعي أن الآخر مخطئ في دينه . . أتقبل بهم جميعا مع أن أديانهم التي يدّعون وصلا بها لك تكفّر بعضها البعض وتحتكرك لها وتزعم أن طريقها هو الوحيد الموصل لك ؟

لست خائفا من ملاقاتك كما أني لست متشوقا كثيرا . . إن كُتب لنا أن نلتقي يوما فسأسألك أين كنت مختفيا عن الأنظار ، فأنا صادق مع نفسي ولست كبقية الأتباع الذين يريدون الفوز بنتيجة الاختبار عن طريق نقل الأجوبة الجاهزة من كتابك . . أما أنا فأريد أن أصل للأجوبة التي يقبلها عقلي ويطمئن لها قلبي وليس ما يمليها عليّ غيري . سأجلس معك جلسة عتاب ومصارحة أسألك فيها عن حياتنا التي لم تتكبد عناء التدخل بها وأنت ترى الظلم والقهر والتسلط ، أهي تافهة لهذا الحد؟ وعن آلامنا التي لم تمدّ يد العون لتخفف بها عنا وانت ترى الشقاء والمعاناة والحرمان ، أهي أهون عندك من ان تريحنا منها؟ وعن آمالنا التي لم تحقق لنا شيئا منها وانت ترى خيبات الأمل ، أهي أضغاث احلام لا تساوى عندك شيئ؟ أي دور لك يارب إنما هو من صنع البشر نسبوه لك يامن تُنسب له الأشياء . لم بقيت في عليائك دون ان تحرك ساكنا وأنت تنظر للملايين من خلقك وقت انتشار الأوبئة يهلكون من المرض وهم ينادون ياشافي يامعافي ، لم اختفيت عن الأنظار وتركت الملايين من عيالك يموتون من الجوع وهم يقرؤون وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ، لم اخترتَ ان تبقى على الحياد وانت ترى رجالك يتقاتلون فيما بينهم باسمك . . كل يدّعى بأنه الأقرب لك وانت الأبعد عنهم في واقعهم . لمَ أبقيتَ نفسك مختفيا عنا حين كنا في أشد الحاجة لك . . لمَ لمْ تتجلّى لنا حقيقة بدلا من الركون الى الإشارات الضعيفة والتلاعب بعواطف الخليقة . . أتشعر بالمتعة حين تفعل ذلك؟ أكنت تحس بنشوة عارمة حين ترانا نمد أيدي الضراعة ونمرّغ رؤوسنا في التراب حتى تزول آلامنا؟ أي شعور سادي ينتابك حين تتولى من غير رجعة وتترك الناس الذين تعلقوا بك وعقدوا عليك الآمال وتوجهوا لك بالصلوات واخترعوا لك حججا وأعذارا ، أتلقي نظرة للوراء وأنت مغادر لترى من بقي يبكي من أجلك ومن توقف عن ذلك؟

إن اخترتَ يوم اللقاء بك أن تقبل بي كما أنا ، لا كما غيري وأن تثّمن لي استخدامي لعقلي الذي منحتني إياه وعدم تعطيلي لملكاته التي زرعتها فيني فلربما أنت جدير بكونك رب وتستحق هذا اللقب ، أقول ربما إذ يبقى هناك أسئلة تحتاج الى إجابات منك لعلي أكون أنا الذي أحاسبك عليها بدلا من أن

تحاسبني . وإن اخترتَ غير ذلك وأظهرت السخط وعدم الرضا كوني لم أغش في الامتحان كغيري من أتباعك ولم أعطل عقلي وأسير مع القطيع فلستَ جديرا بالربوبية التي تتلبس بها ولا تثريب عليّ حينئذ حتى لو كان مصيري هو جحيمك الذي يتحدث عنه أتباعك لأنك في هذه الحالة لست بالعادل الرحيم بل أنت الظالم الشرير . ليس بيدي حيلة وقتها مثلما أنْ ليس بيدي حيلة اليوم فقد أتيت لهذه الدنيا من دون أن أُستشار ، وأرفض أن أكون تابعا لكائن غيبي لا أعرف ما يكون سوى من كلام يردده غيري عن غيرهم عن غيرهم عن غيرهم ، لا يختلف كثيرا عن روايات الجن وحكايات بابا نويل . ثم كيف لنا أن نتيقن بأنك أنت الرب يوم اللقاء العظيم ؟ . . قد يكون أحد القوى الغيبية الأخرى ، وما أكثر مدّعيها ، هي التي أيقظتنا من رقدتنا يوم النشور وليس أنت يارب . . عليك أن تثبت لنفسك أولا أنه أنت وليس فوقك أحد قبل أن تثبت لنا .

ثم ما الذي تعنيه بالخلود يا رب؟ أتدري أن فكرة الخلود تخيفني الآن أكثر من العدم . . عشت عقودا من الزمن وهأنذا الآن مودّع وقد تعبت من الاستيقاظ كل يوم حاملا رأسي فوق كتفي . ستون أو سبعون سنة أحسست فيها بالتعب بل وبالملل أيضا فما بالك بملايين أو مليارات أو تريليونات السنين الى ما لانهاية وأنت تصحو كل يوم أو ربما وأنت صاحٍ طول الوقت في جنة عرضها السماوات والأرض . ما تلك العيشة يا رب ، يآه . . أيّ مللٍ ستحسّ به وأيّ ضجر ستشعر به وأيّ رتابة وسأم ستعاني منها . . ماذا ستفعلٍ وقد فعلت كل مايمكن فعله ؟ كل ما لم تره عين ولم تسمعه اذن ولم يخطر على قلب بشر قد رأيته وسمعته وخطر على قلبك . . ثم ماذا ؟ حتى لو انتزعت الملل من نفوسنا واستللت السأم من صدورنا وطردت الضّجر من قلوبنا وأمتّ الموت من حياتنا كي لا يبقى الا زمان لا ينتهي . . كم هذا مخيف ! ثم يأتي رجالك الذين يمنّون الناس بالخلود وهم لا يجدون مايعملوه في بقية يومهم ، ليصرفوا الناس عن تخيل ذلك السجن السرمدي ويخدّروهم بالحديث عن الملذات والمتع الحسية التي سيجدونها في جنتك مما لا يخطر على قلب بشر . . يستوي في ذلك السجن الأبدي من هو في جنتك ومن هو في نارك .

فكرة الخلود الأبدي فضلا عن كونها مخيفة هي أيضا خالية من المعنى وغير مقبولة . . الألم واللذة إنما هما طارئان عرضيان والإحساس بأي منهما لا يكتمل الا ببداية ونهاية للحدث نفسه ولولا كونهما زائلان منقضيان لما وعينا كنه الشعور بهما. تصوّر سنّا يؤلم صاحبه . . لو استمر هذا الألم وبقي صاحبه يتوجع منه فترة من الوقت ثم طال به الزمن سنين وسنين . . أتراه يستمر في توجعه أم ينسى كيف كان حاله بدون ألم؟ ثم ماذا عن اللذة . . تناول وجبة شهية أو قطعة من الكيك أو الآيس كريم أو تصفح كتاب ممتع . . تصور لو أن ذلك الكتاب أو ذاك الكوز من البوظة لا ينتهي . . ألا يصبحوا مملين بعد فترة من الوقت ويفقدوا المتعة المصاحبة لهم؟ ما الذي يجعل من تلك الأشياء لذيذة سوى أنها تنتهي ومعرفة الإنسان بأنها تنتهي . . خذ واحدة من أقوى الملذات وهي لذة الجنس التي لا تدوم الا بضع ثواني وأحيانا دقائق . . تصور لو أنها استمرت ساعات وأيام وأسابيع وسنين . . أيحسّ بها الإنسان لو بقي منتشيا دوما؟ هل ياترى جنتك يارب هي كلذة الجنس ولكن تبقى الرعشة مستمرة على الدوام؟ ثم كيف تكون أخرانا الأبدية حصادا لدنيانا المحدودة، سواء مكافأة أو عقابا؟ كيف يستقيم ذلك مع عدلك الإلهي يا رب . . بعض الأفعال الآنية في دنيانا الفانية يقابلها خلود في نارك، أيعقل هذا وأنت رمز للعدالة؟

ثم ما هذه الجنة المملة؟ . . جنس وأكل وخمر، جنس وأكل وخمر . . وكأنها حفلة من حفلات العربدة الجنسية في أحد الخمارات. أليس توفير نساء لمتعة الرجل هو مثل القوادة . . أليس في ذلك إهانة للمرأة وكأنها مثل الدمى والألعاب الجنسية التي يستخدمها الرجل في الدنيا؟ كتاب مقدس تتحدث فيه عن كبر صدور النساء الذين ستقدمهم لمتعة رجالك في جنتك وتغري بهن أتباعك، تغريهم بكواعب أترابا، بنساء ذات أثداء كبار . . أيعقل هذا منك يا ملك الملوك؟ أريد أن أمارس هواياتي المفضلة والتي كنت أمارسها سابقا . . أريد مشاهدة الأفلام بالسينما والسفر لاكتشاف بلاد جديدة وتصفح الإنترنت، أهناك إنترنت في جنتك يا رب وتويتر وفيس بوك ويوتوب؟ أريد أن ألعب الكرة حتى

أحس بالتعب، أيمكن أن أحس بالتعب أم أن هذا لا يسري في جنتك؟ لا أريد فاكهة تتدلى فوق رأسي لأمد يدي وأقطفها بل أريد أن أصعد شجرة لأقطف الثمرة بنفسي وربما أقع في الطريق وأجرح قدمي . . أريد أن أحس بالجوع والألم قليلا، ثم لا أريد امرأة مستلقية على الأريكة بانتظار ممارسة الجنس معها بل أريد قصة حب مع امرأة تتمنع وتتهرب مني في علاقة قد تفشل أو تنجح . . أريد لوعة الفراق ولهفة اللقاء. ثم كيف سأستمتع وأنا أعرف أناسا أحببتهم في دنياي انتهى بهم المطاف الى نارك . . أيّ نفس سوية تقبل أن تتقلب في جنتك بينما أبوها أو أمها أو ابنها أو أحد من أحبابها يصطلي بنيرانك، عليك أن تمتهن إنسانيتك وتحط من كرامتك أيها المخلوق كي تقبل بهكذا جنة. ثم ما لـــــــــــــــــــي وللمؤمنين متكئا على الأرائك . . أقابل رجالك وأتباعك الذين أعرف كذبهم وزيفهم في الدنيا بينما أهل الدلال والبهجة والوضوح هم في النار. أناس أخيار لا يؤمنون بكتابك، أفنى بعضهم عمره في بناء دنيا أفضل قضوها في عمل الخير ومساعدة الآخرين المساكين من خلقك ممن تركتهم أنت وهم يعانون مرضى أو محرومين ثم يكون مصير هؤلاء الأخيار جحيمك. أتدري يا رب، ربما كان هناك خطأ ما، فالجنة إنما هي عقاب للأشرار الدجالين المتكلمين باسمك والمدافعين عنك الكارهين لبقية الخلق والجحيم ليست كما قيل وصوّر لنا، بل هي مأوى للصالحين من الكفار الأخيار المسالمين الذين نفعوا البشرية باختراعاتهم وماقدموه من اعمال . . لعل أتباعك قد خلطوا بين الإثنين في عجلة من أمرهم!

وما تلك الأشياء المرعبة المفزعة التي جاء بها كتابك وأعددتها لمن لم يصدق بك في نارك الموقدة بسقر وتارة في الحطمة وتارة في لظى نزّاعة للشوى. شراب يشوي الوجوه وطعام يغلي في البطون كغلي الحميم وعذاب بمقامع من حديد وسحل وشيّ بالنار وكوي للجباه والجنوب والظهور وتبديل جلود مكان تلك التي احترقت حتى يستمر مسلسل التعذيب وكأنها حفلة شواء عظيمة يتقلب فيها الناس ويُصلَون مثل قطع اللحم المشوي وفي سلاسل يُسلكون . . ومع ذلك هم يأكلون ويشربون بل ويتكلمون ويسمعون! أنواع من الترهيب والتخويف والفزع الذي لم نقرأ له مثيلا ولا حتى في أسوأ سجون البشر، بل إن البشر أنفسهم قد

اتفقوا أخيرا على تجريم التعذيب حتى ببهائمهم وأسوأ ما صنعوا يا رب لا يقارن بأهون ما لديك في الهاوية ثم تقول عن نفسك بعد ذلك أنك رحمن رحيم! صنوف من العذاب لم نعرفها وأشكال من الإرهاب لم نسمع بها حتى قرأنا كتابك وما أعددته لمن لم يؤمن بك الى درجة أن تجعل نزيل نارك يتمنى أن يعود ترابا . . هو أصلا من تراب، تصنعه ثم تُسقيه الوانا من العذاب ليتمنى أن يعود ترابا . . لمَ لمْ تتركه ترابا في حاله، لم صنعته إذن؟ كم أرثي لحالنا حين أشاهد أطفالا يُطلب منهم حفظ كتابك بآياته المروّعة تلك. أتدري يا رب أننا نضع حدودا عمرية لمشاهدة أفلام الرعب بالسينما فلا يشاهدها إلا الكبار . . خمسة عشر أو ثمانية عشر عاما. ربما علينا أن نفعل الشيء نفسه مع كتابك فلا يمسّه . . ليس المطهرون، وإنما البالغون، ولا ضعاف القلوب . . بل شدادها. لا نحتاج الى عقاب منك يا رب، يكفي حياتنا النتي نعيشها.

ما لك وللحرق والنيران يا رب . . تشعلها وتُوقد بها الناس والحجارة ثم تدعو نفسك رحمن رحيم! تلعن أصحاب الأخدود الذين حرّقوا الناس وتفعل أعظم منهم. لمَ لمْ تختر البرودة الشديدة مثلا كي تُعذب بها إن كان مبتغاك هو التعذيب، ألأن الذين بعثت كتابك لهم يعيشون في أرض حارة مقفرة ويعرفون أثر النار والحرارة أكثر من الصقيع؟ ثم كيف تعاقب أحدا لمجرد أنه لم يتعرف عليك؟ أنا مسالمٌ بطبعي وأفعل الخير لمن حولي ولا أرضى أن أوذي احدا من المخلوقات فضلا عن البشر، كيف تحكم علي بنار جحيمك لمجرد انني لم اقتنع بما يحكيه عنك اتباعك ولم يستوعب عقلي ما يروونه عن عالمك الخيالي، ثم أيّ من تلك العوالم الغيبية هو لك فكل طائفة تنسب نفسها لك؟ أفهم قوانين البشر تلك التي يحكم فيها أحدهم على آخر لأنه ارتكب خطأ بحق آخر لكني لا أفهم كيف يكون الجهل بك خطأً يستحق عقوبة منك؟ لو أن ملكا تجول في صحراء مملكته وقابل أعرابيا اكتشف الملك في حديثه معه أنه لا يعرفه . . أتظن ذلك الملك سيغضب منه ويأمر بقتله أو تعذيبه عقوبة له لأنه لم يتعرف عليه؟ دعني أكون صريحا معك يا رب، إنما أنت موجود لأن هناك من أوجدك . . لو توقف عن ذلك (عن الإيمان بك) لاختفيت من الوجود. أنت كائن لأن أحدهم أراد لك أن

تكون، أنت قائم لأن هناك من أقامك، أنت صائر لأن هناك من صيّرك، أنت حادث لأن هناك من أحدثك . . أنت تحُيي لأن أحدهم أحياك في عقله. قد أكون مخطأً لكن كل الدلائل كما أرى تشير الى ذلك.

يقول أتباعك حين أثير تلك الأسئلة عن الملل والخلود والفناء والعدل وأحاول فهم رسالتك التي ضمّنتها كتابك، يقولون بأنني أرتكب خطأً جسيما حين أحاول أن أقيس تلك العوالم الغيبية بمقاييس عالمنا المادي الفاني وأنظر لها بمنظار دنيانا. . حسناً، وهل هناك من منظار ومقاييس غير تلك التي نملك؟ أعطونا منظارا آخر نقيس به غير عقولنا ودنيانا، ثم إن كل أوصاف عالم الآخرة الغيبي إنما هي من كلام البشر ومفرداتهم وتصاويرهم التي استحضروها في أذهانهم. حتى أنت يا رب . . إنما أنت مُفصّل لنا بمقاييس عالمنا، ترى وتسمع وتتكلم وتغضب وتبطش بيدك وتهرول وتجلس وتغار وتستهزئ وتمكر بل وتلعن وتستحي وتمنن وتصلي وتتحدى وتضحك ولك يد وأصابع وقدم وساق . . أبقي شئ من صفات البشر لم ينسبها اتباعك لك؟ أتعرف يا رب أنني حين أشاهد فلما سينمائيا مادته تقوم على الفانتازيا الغريبة في قصته وفي عوالمه وفي شخوصه التي صنعها المخرج باحتراف، كفلم أفاتار مثلا، أندمج في ذلك العالم الخيالي وأنسى عالمي الواقعي الذي كنت فيه الى درجة أني حين أخرج من صالة العرض أحتاج لبضع ثواني كي أستعيد توازني وافكاري التي تعودت عليها وأعود الى حياتي الطبيعية السابقة التي كنت عليها قبل مشاهدة الفلم. مصيرنا حين نلج عالمك الأخروي سيكون أعظم وقعاً بكثير من دخول صالة سينما لمشاهدة هكذا فلم وسننسى من كنا وأين كنا وكيف كنا وماذا كنا، وسنفقد أي ارتباط بما كنا عليه. حينها لن يكون لفكرة الثواب والعقاب من معنى إذ كيف أُجازى على شئ لم أعد أعرف عنه شيئا بل إن حياتي في الدنيا لن تعني لي شيئا من هول وغرابة ما سأجد في أرض العجائب . . مثلما لو أن أحدا عاد جنينا في بطن أمه، أترانا نذكر الآن عالمنا ذاك في بطون أمهاتنا وكيف كنا نعيش هناك؟

يقول أتباعك نقلا عن كتابك أن الهدف من الحياة إنما هو لعبادتك يا رب . . حسنا وما الهدف من ذلك؟ للذهاب الى الجنة . . ماذا عن من لا يريد أن يذهب للجنة ، لا سيما وأنها مكان مخصص في غالبه للأكل والعربدة الجنسية . . طعام وجنس يحظى به الرجال! ليس له إذن سوى النار . ولكنه لا يريد الإثنتين . . أليس هناك خيار سوى الجنة أو النار؟ ماذا إذا كان لا يريد شيئا . . يموت وينتهي . لنفترض أنه دخل الجنة . . ثم ماذا؟ أكلَ ومارسَ الجنس . . ليس عشرات المرات ولا آلاف المرات ولا ملايين المرات بل مليارات المرات . . ثم ماذا ؟ ما الغاية من ذلك كله . . هل لأن الإنسان مغرور بطبعه ظنّ أ ن الشمس والقمر بل والكون كله مخلوق لأجله ومن أجله . . هل لأنه فان ويعي أنه فان ويرى الأشياء حوله تفنى وأن عمره قصير مهما امتد به ، سأل عن الهدف من وجوده والغاية من خلقه؟ قد يصنع الإنسان معنى له في هذه الدنيا أما الغايات فتجرّ معها كل أنواع الوسائل ، وقد يبحث عن مضمون أما الأهداف فعرضه للاختراقات . . هناك معنى يستطيع أن يجده العالم في مختبره وفي أسرار الطبيعة حوله وهو يتوقُ للمعرفة ، يجده الفنان في ألوان لوحته وهو يرسم أفضل ما يتخيله ، يجده عالم الرياضيات في معادلاته ، يجده المحسن في ابتسامة من يمد العون له ، يجده العاشق في نظرات محبوبته ويجده الإنسان في كل جميل وفي كل فعل للخير وفي كل رفع للمعاناة عن الآخرين وفي كل منظر شروق للشمس أو غروب . ليس أتباعك يا رب هم فقط من يمكنهم أن يجدوا معنى للحياة أو مضامين . . هناك آخرين ملحدين و لادينين ، سعداء وراضين قانعين ، يسعون لأن يعيشوا حياتهم أفضل ما يستطيعون وأن يتركوا دنياهم أفضل مما وجدوها دون أن يشغلوا أنفسهم وغيرهم بأفكار غيبية لا دليل عليها ، بل إن المُشاهد أن أتباعك هم أكثر مادية من غيرهم من الماديين ، في طلبهم لمتع الدنيا وملذات الآخرة الحسية . قد لا أستطيع أن أصف تلك السعادة التي أشعر بها حين أنظر الى ابتسامة محبوبتي أو الوان قوس قزح في يوم شتوي بديع ، مثلما لا يستطيع المتدين أن يصف السعادة التي يجدها في سجوده لك ، لكن على المؤمن أن يكون صادقا مع نفسه متواضعا فيما يريده . . أيريد تلك المتع والملذات التي وعدته بها لنفسه فقط دون الآخرين أم يريد معها أو بدونها الخير والحب والسلام له وللخلق أجمعين .

عزيزي الله،

ما بالك والمرأة، تلك المخلوقة المرهفة الحس الطرية العود والناعمة الملمس، صنعتها ضعيفة مسكينة ومن ضلع الرجل، إن حاول أن يقيمها كسرها وإن تركها بقيت عوجاء ولولا حواء لم تَخُن أنثى زوجها الدهر كما يقول رجالك ووكلتها لهم كخادمة مطيعة تأتمر بأمرهم وتصبح قيد شورهم . . إذا مرضت لا يلزم زوج علاجها وإذا ماتت لا يلزمه حتى شراء كفن لها! لن أسألك لم إذن خلقتها فأي جواب منك إنما هو دفاع عن موقفك هذا منها وهو غير مقنع إذ يمكنك صنع ما تريد من دون زوجين اثنين . . ألست صاحب كن فيكون، لكني أسألك لم وضعتها في منزلة أقل من منزلة الرجل ووهبته القوامة عليها. ما الذي فعلَته بك تلك المسكينة لتجعلها أكثر أهل النار . . أهناك ما يغيظك منها يا رب الى تلك الدرجة؟ في كتابك الكثير من الآيات تحكي عن السبي وعن ملك اليمين وعن الزنا (بالتراضي) وتفصّل في ذلك وتشرّع لكن لم تأت بآية واحدة عن انتهاك المرأة باغتصابها وإرهابها. صوّرت الشيطان في جسدها فهي سبب الغواية، . . تقبل وتدبر في هيئة شيطان وتركت عقل الرجل وهو ينجذب لها وساويت بينها وبين الحمار والكلب في قطع صلاة أتباعك وحكمتَ على من وَليتْ أمرهم بعدم الفلاح وأوشكتَ أن تأمرها بالسجود للرجل وسمحتَ له بضربها ووصمتها بنقص العقل والدين كما يقول أتباعك بل وسمحتَ له أن يُكرهها على ممارسة الجنس معه، وأنها تبيت تلعنها ملائكتك إن هي رفضت الانصياع لزوجها . . ثم يأتي رجالك اليوم وبعض من نسائك لـــــــــــــــيقولوا أنها جوهرة مصونة وملكة محروسة راضية قانعة في مملكة الدين . . أيعقل هذا يا رب؟

الحالة الوحيدة التي ربما تحظى فيها بتقدير من الرجل هي حينما تكون أما وذات ولد . . حين يكبر أولادها تحظى بحبهم وتقديرهم، لكن ماذا عن حياتها قبل أن تبلغ من العمر عتيا بل وماذا عن من لم ترزق بأولاد، ثم إن عاطفة الأمومة لا تحتاج أصلا الى تعليمات من فوق سبع سماوات. سلبتَ منها كرامتها وإنسانيتها

التي أعادها بعض من خلقك من غير المؤمنين بك حين سطّروا حقوق الإنسان ذكورا كانوا أو إناثا ، وجعلت منها أداة متعة للرجل وسمحت له بمعاشرة ماطاب له مثنى وثلاث ورباع . المرأة بقيت في بلدي ، بلد خادم حرميك يا رب ، وحتى وقت قريب لا يمكنها أن تخرج من بيتها أو تنتقل من مكانها لمكان آخر أو تتزوج أو تسافر فضلا عن أن تتعلم أو تعمل من دون موافقة ذكر ولو كان أغبى منها وأصغر . أيرضيك هذا يا رب أم هو كما يقول المعتذرون نيابة عنك ، إنما هي تفسيرات تتماهى مع ثقافة محلية وتأويلات موضعية لكلامك ، لا تعكس مرادك ولا تلتزم بمقاصدك . إن كان الأمر كذلك ، فلم لا تتدخل وتعيد الأمور الى نصابها . . الى ما تريد حتى نفهم ما تريد ، ألا تريد لنا أن نفهم مرادك ؟ انظر الى كم المقالات والكتب التي دبجها رجالك للدفاع عن موقفك هذا بالحديث عن حقوق المرأة ومكانتها في دينك وتفنيد ما أسموه بالشبهات حولها لترى كم هي مسكينة وإلا لما احتاج أتباعك أن يكتبوا كل هذا الكم دفاعا عن موقفك منها .

أتعرف يا رب . . لابد أن تكون ذكرا لتجعل من المرأة هكذا ! كل هذا التمييز ضد المرأة لا يمكن أن يصدر الا من ذكر ينظر بدونية للنساء ويتحسّس من نسبة البنات له ويتسائل بتعجّب "ألكم الذكر وله الأنثى" . . ما بالها الأنثى يارب ؟ ثم تقول عن ذلك أنها قسمة ضيزى وغير عادلة . . . . أيعقل أن تجاري خلقك في تفكيرهم ضد الإناث ؟ أما كان الأجدر أن تقول لمن نسب لك البنات وما ضير ذلك فكلكم أولادي ، أم أن "ليس الذكر كالأنثى" .

يقول المعتذرون من أتباعك أن هذا ديدن عصور الجهل والظلام وأن وضع المرأة في الأمم سابقا كان هكذا وأنك بذلك لا تختلف عن شريعة من سبقك ، لكن ما دخل ذلك بكتابك وبرسالتك الإنسانية للعالم أجمع . . ألم يكن الخمر أيضا معروفا في الأمم السابقة ومع ذلك تدخّلتَ وحرّمته على أتباعك المسلمين . ألم يسعك أن تتدخل وتصحّح الحال وتعيد للمرأة كرامتها وتضعها في مصاف الرجل ، أليست قيمة المرأة ودورها ومكانتها وقبل ذلك إنسانيتها أهم وأعظم شأنا من قدح جعّة يسكبه أحدهم في كأس ليستمتع به ؟ كيف تقبل يا رب بل

وتشرّع أيضا لقوم باتّخاذ سبايا عقب قتال مع آخرين ومعاملة نساء الفريق المهزوم كجواري وإماء توزع نسائهم وبناتهم كما يوزع المتاع ليمارس جنـــــــــــد الفريق المنتصر الجنس مع نساء الفريق المغلوب غصبا وقهرا وربما كان بعضهن متزوجات . . أليس هذا تعدّياً على إنسانية المرأة وحطّ من كرامتها؟ ليــــــــــــت شعري، كيف سبي النساء وممارسة الجنس معهن غصبا حلال، بينما شاب وفتاة يمارسان الجنس مع بعض بالتراضي حرام؟ ثم ما دمنا نتحدث عن المرأة لنتحدث أيضا عن الرق والعبيد والقيان، كيف يا رب تسمح بل وتشرّع لناس أن يسترقّوا آخرين ويجعلوا منهم عبيدا ليصبحوا في مرتبة أدنى من غيرهم؟ كيف تُبقي على وضع اجتماعي لا يتناسب مع ما تبشر به، أليس دينك هو دين العدل والرحمة والإنسانية؟ سيقول المعتذرون من أتباعك المرددين لكلام من سبقهم أن هذا تقليد وممارسة قائمة معروفة قبل نزول كتابك . . كذلك شرب الخمر، هو أيضا ممارسة قائمة من قبل ومع ذلك لم تُبق عليه. أيعقل أن يكون انتهاك حرية الإنسان وكرامته أهون عندك من كأس خمرة فتحرّم الثاني وتُبقي على الأول؟ ويعتذرون عنك أيضا بأنك شجّعت أتباعك وحضضتهم على عتق عبيدهم وكأنهم سينتهون في بضع سنين . . هاهم يتاجرون بالبشر منذ ظهور كتابك ولم يردعهم عن ذلك سوى دول الغرب الكافرة التي وضعت كتبك على الرف واستبدلتها بعقولها وبالميثاق العالمي لحقوق الإنسان.

ها قد أعلنتَ رسالتك ونشرتَ كتابك، لمَ لمْ تضمّنه نصّا صريحا بيّنا جازما وقاطعا لا يحتمل التأويل بتحريم الرق بكل صنوفه ومنع الاتجار بالبشر يارب البشر، حتى ولو كان في ذلك إضرار مؤقت بمصالح من بعثتَ به اليهم . . هل أنت تتملّق أتباعك يا رب و تداهنهم أم أنك تسنّ قانونا إنسانيا عالميا للبشرية جمعاء يصلح لكل زمان ومكان كما يقولون؟ لا يمكن أن أغفر لك يا رب سكوتك على مسألة تتعلق بكرامة الإنسان وحريته هي من أعظم ما يمتلكه . . أما كان الأحرى بك وأنت رب العباد أن تمنع العبودية تماما بين عبادك وتقرن ذلك بإقرأ في أولى آياتك بدلا من أن تتحدث عن أحكامها وبيان شرعيتها وعلاقة السيد بجواريه. أنت في ذلك كمن يرى المظلوم وهو يتلقى الضربات تلو الأخرى

على وجهه ورأسه فتأتي لتقننّ عددها حتى لا يهلك وتحوّل الضرب من الوجه الى البدن. أيعقل أن يكون بشر من مثل ابراهام لنكولن ومارتن لوثر كنج أكثر عظمة منك حين يناضلون من أجل الحرية فيما تطالب أنت بتحسين شروط العبودية أو تسهيل الفكاك منها كما يدّعي أتباعك. أيكون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أفضل من آياتك . . ألم يكن أجدر بك أن تعلنها مدوّية على الملأ في كتابك الخالد أن الرق حرام بينكم يا عبادي مثلما أن الظلم حرام . . كيف يكون الظلم حرام بينما الرق حلال؟ كيف يكتمل دينك يا رب وسوق النخاسة يستمر قائما لقرون طويلة بعد نشر كتابك؟ هل لأننا عبيد لك أردت لبعضنا أن يجرب شعورك حين نمتلك مصير غيرنا ونسخرهم لنا . . أيمكن أن تكون عنصريا يا رب . . أيعقل هذا؟

لا يمكن أن أقبل منك يارب تشريعك لملك اليمين فتلك عبودية جنسية صارخة مهما حاول أتباعك اليوم من تلطيف ذلك أو ترقيعه إذ أُمتهنت فيها كرامة المرأة عبر العصور لتُساق في أسواق النخاسة تُباع وتشترى ويمارس الجنس معها رغماً عن إرادتها. بل إنك قننّت ممارسة الجنس غصباً حتى مع الزوجات الحرائر إن هنّ امتنعن عن المعاشرة، فأمرت زوجها بضربها وملائكتك بلعنها، كيف لا وماهنّ سوى كالحرث عندك. وضعتها مع السفهاء حين التصرف بالأموال وجعلتها ناقصة عقل حين صنّفت شهادتها بنصف شهادة الرجل، بل وحتى دينك لم يسعك أن تقبل بها كاملة حين جعلته ناقصا في حالها بسبب حكمك عليها بعدم قبول صلاتها وصيامها في أوقات معلومة من الشهر . . ماهذا إذن إلا مخلوق ناقص التركيب معتلّ الأهلية يارب والنقص يعود عليك لأنك أنت من صنعه . . أتقبل أن يُقال ذلك عنها وعنك ؟ قد يجد أحدهم تفسيرا لتناسب نظرتك الدونية والمهينة للمرأة آنذاك مع عصور الظلام التي ظهر فيها كتابك لأول مرة . . أقول قد ولكنه بالتأكيد لايصلح لحالنا اليوم بل إنه حتى أتباعك يتحرّجون من كثير من ماجاء فيه ويحاولون ترقيعه وهم مستمسكين بعبارة صالح لكل زمان ومكان، ولكن هيهات، فالواقع أنه ليس كذلك على الإطلاق.

عزيزي الله ،

أعذرك فيما نحن فيه فأنت لست المشكلة ، إنما أنت كالمسكين البائس الذي يُسند اليه الآخرون أفراحهم ومصائبهم وكالصديق يعلّقون عليه مآلاتهم وآمالهم وكالضّامن يرجونه لتغطية النقص في حيواتهم فما الدنيا الا استثمار ناقص لا يوفي برأس مال صاحبه . . أنت شماعة الأخطاء واله الفراغات في حياة البشر ، يستخدمك كل أحد ليسدّ النقص في حياته . ورّطك غيرك في تحمّل ما لا يُحمل وإلا فإنّ المُشكل هو ذلك الإنسان الذي اخترعك . يقولون أنك واجب الوجود ، ولو لم تُوجد لأوجدك الإنسان العاقل . . من يدّعي معرفة بك غير العاقل . أيعرفك المجنون أو الحيوان أو حتى الجماد أو إنسان النياندرثال؟ من يعرفك يا رب غير الإنسان العاقل . . أيتأثر بوجودك الفعال ولا أقول الخامل أحد غير ذلك الإنسان؟

ليته أبقاك بعيدا عن حياته العامة واحتفظ بك في دائرته الفردية على مستوى شخصه ، فالدين لك لكن الوطن والعيش المشترك للجميع . لم يفطن لذلك الا بعض الشعوب النابهة حديثا والتي وعت ذلك ورأت من الشرور ما رأت فحيّدت الدين وجعلته مشروعا شخصيا خاصا لا دخل للدولة به . . الدين عندهم شيء فردي متى ما تعدّى الأحد أصبح خطرا على الشعوب . هو مثل المنشفة الشخصية أو فرشاة الأسنان المعلقة قرب حوض الغسيل . . أرأيت نفس المنشفة أو الفرشاة يستخدمها أكثر من فرد في العائلة . ثم ألم تقل في كتابك أنْ كلّهم آتيه فردا . . هل ستستقبلهم يا رب يوم الدينونة بصفتهم الإعتبارية أم بصفتهم الشخصية؟ هل ستنادي على رئيس مجلس الإدارة بالشركة الفلانية وعلى ملك الدولة الفلانية أم ستلتقي بهم كأفراد يمثّلون أنفسهم وما كسبوه بصفتهم الشخصية؟ ما بال أناس يتعاملون معك إذن وكأنك ستحاسبهم بصفتهم الإعتبارية . . كيف ننسب دولة ما لدين ما فنقول دولة اسلامية ، هل للدولة دين وهل ستحاسب الدولة أم ستحاسب الأفراد الذين يعيشون على تلك الأرض وفي ظل تلك الدولة؟

أتعرف يا رب ما الذي يجمع بينك وبين الدولة ، كلاكما كيانات وهمية افتراضية لا توجد الا في مخيلة الناس الذين اخترعوا تلك الصور المجردة . إن التصديق بالشيء لا يجعل منه حقيقة سوى في عقل صاحبه وإلا فإن الواقع هو ذاك الذي يبقى حين تتوقف عن الإيمان به . . هل تبقَى يا رب حين يتوقف الناس عن الإيمان بك؟ ومع ذلك فإنك يا الله أنت والدولة كيانات مفيدة بلا شك ، إتفق الناس على إضفاء صفات بها والحاق مهام ووظائف لها لتؤدي أغراض محددة مثلما أن ورقة النقد تؤدي غرضا إتفق الناس على قبوله لكن وجودها ليس لذاتها وقيمتها التي تصدر منها بل للقيمة المعنوية التي وضعها الإنسان فيها ، فهي ابتداء من صنع الإنسان وبنات أفكاره مهما بلغت في قوتها وعظمتها كالدولة وورقة النقد . . هكذا أنت . لكن مثل ورقة النقد التي قد تتعرض لهبوط في قيمتها الشرائية بسبب التضخم لينتج عن ذلك ارتفاعا في أسعار السلع فيتضرر الناس من ذلك لا سيما محدودي الدخل ويستفيد أناس آخرون ، هكذا أنت أيضا يا رب قد تتضخم في عقول الناس لتدخل في أدق تفاصيل حياتهم واسلوب معاشهم وطريقة تفكيرهم فيضيق أفقهم وتنحسر روح المبادرة لديهم وتكسف شمس الحرية في سمائهم ويستفيد آخرون من وراء ذلك .

عزيزي الله ،

ألا يمكن أن نتعرف على بعض من دون أن ندخل الدين بيننا؟ أنت كما أنت جميل معطاء ولو أني لم أفهم بعض الأشياء عنك ، كقولك للشيء كن فيكون . عقلي لا يفهم مثل تلك الأحاجي والألغاز . . ربما كان ذلك الكلام يليق بزمن الإنسان القديم أما اليوم يا رب فإنّ كن فيكون هو مما لا يمكن للعقل أن يقبل به فضلا عن أن يسلّم بما ينتج عنه ، ولا أظنك تقبل يا رب أن أؤمن بك من دون عقل فأنت تخاطب عقولنا في كتابك . أتدري ما يخطر ببالي حين أقرأ كن فيكون ، أتذكّر تلك الكلمات التي يرطن بها الساحر وهو يخرج أرنبا من قبعته "أبرا كادابرا" ثم يضحك الحضور . . ذلك المشهد هو ما يخطر ببالي الآن . نعم

لا أنكر أنّ كن فيكون وأمره بين الكاف والنون أكثر وقعاً وأطربُ نغما على السامع العربي من أبراكادابرا ، لكن ما الفرق يا رب؟

حسنا لنعد الى الدين قبل أن نتيه بين الكاف والنون . . قيل لنا أن الدين مثل كتيّب الاستعمال للصانع حتى نتعرف عليك بشكل دقيق فنحن ابتداءً من صنعتك ونحتاج الى كتاب استعمال للتشغيل والصيانة حتى نبقى على تواصل بك . ألا يمكن أن نُبقي على تعارفنا بدون عقد بيننا أو كتيب استعمال ، صحيح أن العقود تجري بين البشر حين يتعاملون مع بعضهم لكن أفضل الصداقات هي تلك التي لا يصاحبها اتفاق أو تمليها شروط بل تظل عفوية بسيطة لا يشترط فيها أحد على الآخر أي قيود أو بنود . . ثم أيّ كتيب سنستخدم يا رب؟ فهناك ثلاثة أديان منسوبة للسماء وغيرها من الأرض لكن لنبقي حديثنا الآن عن تلك التي تدّعي أنها من عندك . أي واحدة سنستعمل منها لنتعرف عليك؟ الذي أراه أن الجغرافيا هي التي تحدد أي كتيب نستعمله فمن ولد في بلاد المسلمين فسيستخدم كتابهم ومن ولد في بلاد النصارى فيستخدم كتابهم . . أيرضيك هذا يا رب؟ . . أتترك مكان الميلاد يحدّد من سيهتدي الى كتيب الاستعمال ، الى العقد السوي والدين الصحيح ليصل اليك . . ما ذنب من ولد في المكان "الخطأ"؟

أتدري يا رب ما مشكلة اعتناق دين من أديانك التي بعثت؟ . . أنها حصرية منغلقة على أتباعها . كيف يا رب يكون دينك عالمي كما يقول أتباعك وأن كتابك للناس كافة ثم متى ما دخل أحد في حِمى رجالك أصبح لا يقبل بالآخر من غير دينه ، يدعون غيرهم ويرفضون دعوة الآخرين لهم . . يبنون معابد لهم في بلاد الآخرين ويغضبون من فكرة بناء معبد للآخرين عندهم مع أن كلهم يدّعون وصلا بك . متى ما دخل أحدهم في دينك فلا يحق له الخروج منه وإلا أُجهز عليه بحد الردة . . ما ذنب من ولد فيه؟ هو لا يستطيع الفكاك منه . . أتعرف أن هذا هو أحد أسباب انتشاره فهو يورّث أبا عن جد وأتباعك من أكثر أهل الأرض تناسلا . كيف انتشر دينك يا رب بعد وفاة رسولك . . هل كان هناك وفود ومندوبين وبعثات أو مؤتمرات عالمية لعرض بضاعتك التي ظهرت

للتوّ بين الناس والتعريف بدينك الجديد ونشر الأخبار عنه أم أن رجالك اعتلوا ظهور جمالهم وقاموا بصقل سيوفهم واعملوا في الناس القتل مُخيّرينهم بين ثلاث ، إما أن يدخلوا في الدين الجديد غصبا أو يقدّموا ضريبة مالية لأتباعك ويعلنوا الطاعة والولاء أو يجهزوا أنفسهم للذبح والقتال . كيف تقبل يا رب أن ترى رجالك يرحلون الى أناس يعيشون في حالهم وبين أهاليهم خارج موطن كتابك ليرغموهم على واحدة من تلك الثلاث؟ ما ذنب من لا يريد أن يعتنق دينك حينذاك . . بل ما ذنبه اليوم؟

ضحكوا عليّ حين قالوا لا تلوموا الدين بسبب ضيق فهم أتباعه له ولا تحمّلوه ما ليس منه بسبب سوء تطبيقه كما زعموا ، وقضيت شطراً من حياتي أصدّق ذلك وأقرأ كلاما من مثل ذاك الذي يقول حين سافر لبلاد كافرة وجدت اسلاما ولم أجد مسلمين وحين عاد لبلده المسلمة وجد مسلمين ولم يجد إسلاما . عدت للتلفيق حين كنت أردد مثل هذا الكلام كي أوفّق بين ما أراه أمامي من أفعال أتباعك وبين ما يزعمون أنه في كتابك وأنفقت زمنا من عمري وأنا أجيّر أخطاء أتباعك لتصرفاتهم وألقي باللوم على سلوكهم منزّها كتابك عن أخطاء متابعيه وتلك حيلة أخرى لا أستطيع أن أتتبع مصدرها ، حتى بدأت أفكر بعمق حين زادت جرعة الدين في مجتمعاتنا قبل سنين وتحول بعضٌ من رجالك الى خلايا تنشر الرعب والقتل وكأنهم يستحضرون فرق الحشاشين أيام الحسن الصباح ، لكن الذي جعلني أفيق ببطء مما أنا فيه هو ردة فعل الباقين الذين يستنكرون على استحياء تلك الأفعال في الوقت الذي يستقي شيوخهم عقيدتهم من نفس المصادر التي يستند عليها قادة تلك الخلايا . طال الزمن بكتابك ومضى أربعة عشر قرنا والمعتذرون نيابة عنك يدّعون أن الفرصة لم تتح بعد لتطبيقه كما أردت . تكشّف لي يا رب حينها أن المشكلة ليست في أهل الدين بل هي في الدين نفسه ، ليس في تطبيق النصوص بل في النصوص نفسها . . ليس في فهمنا للدين بل في جوهره .

أصبح اليوم من يلتزم بكتابك ونصوصه ويمارس شعائره بحذافيره ويطبق تعاليمه كما كانت في العهد الأول الذي صدر فيه وسط رسولك وصحبه ويعتنق مبادئه حرفيا كما شرعت يسمى متشدّدا وإرهابيا في نظر العالم بينما من يرفضه تماما ويختار طريقا غير ما علّم وأسلوب حياة غير ما شرع يصبح ملحدا زنديقا خارجا عن الملة وحلال دمه في نظر أتباعه . . ما الذي سيفعله العامة اليوم من الذين توارثوا دينك إذن وما هو مستقبلهم؟ يبدو أن هناك نسخة قادمة منقحة لطيفة قليلة الدسم خفيفة السعرات من تعاليم كتابك ستتطور مع الوقت لتتناسب مع الزمن القادم، قد يفقد معها أتباعك زمام السلطة أمام العامة لا سيما بعد أن يكون الناس قد نضجوا وزاد وعيهم بأنفسهم . . أيرضيك هذا يا رب؟ إن كان لدينك يا رب أن يبقى فعليه أولا أن يتخلى عن تلك الأحمال ويلقي عن نفسه تلك الأغلال التي تراكمت عليه، مثلها في ذلك مثل الدهون التي توشك أن تسد شرايين الإنسان. عليه أن يتطور ويتغير . . سيتوقف الناس عن تطبيق معظم ما في كتابك من الأحكام والتعاليم التي لم تعد حتى يومنا هذا تناسب وقتنا الحاضر فما بالك بالقادم من الأيام . . هناك بعض الكلام العام الذي لا يضر وهو الذي سيبقى يُتلى أما الباقي فأحسبه سيُهمل ويعطّل.

الناس يولدون بلا دين وتلك هي الفطرة الحق لكن أهاليهم ومجتمعهم يغرسون فيهم دينك يا رب الذي ارتضاه آبائهم لهم. أليس من حق المواليد أن يُتركوا حتى يبلغوا الحلم ثم يقرر كل واحد أي فكرة غيبية يريد أن يعتنق، إن أراد، بدلا من أن نترك ذلك للجغرافيا ومكان المولد؟ يصعب أن تُقنع أحدا بتغيير قناعاته الدينية عن طريق العقل والمنطق لأنه لم يختر تلك الاعتقادات بعقله أصلا بل وُلد بها وفيها وتمّ غسلُ دماغه للقبول بها وينشأ وهو يدافع وينافح عن أشياء لم يختارها إبتداء. أنظر الى أمرك لإبراهيم بأن يذبح ابنه والشيطان يقول له لا تفعل . . ويعتقد من يقرأ ذلك أنك يا رب الأرحم بينهما. لو أن ابراهيم موجود اليوم وهو ينوي القيام بذلك لزجّوا به في السجن أو لجرّوه الى أقرب مصحة نفسية. دولة خادمة بيتك تنفق المليارات على مبنى الشيطان في مِنى والناس تفرح بذلك وتبجّله بل وتضحك سخرية من آخرين على غير دينهم ينفقون آلافا على أبقار

تنفعهم على الأقل . أظن أن عدم ظهور أنبياء في وقتنا هذا يدعون الى أديان جديدة إنما هو لتوفر المصحات و مستشفيات الأمراض العقلية .

أتدري يا رب ما يحتاجه دينك اليوم؟ يحتاج الى خصخصة . . نعم، مثل خصخصة القطاع الاقتصادي كي نفكّ اشتباكه مع المنتفعين من أهل السلطة والسياسة ونحوّله من مؤسسة أهلية عامة الى مؤسسة خاصة تعمل وفق قوانين الشركات المقفلة بدلا من قوانين السوق العام، شركة توصية بسيطة بدلا من مساهمة عامة . هل تقبل يا رب أن يكون الدين أمرا شخصيا بحتا ويعامل كالحشيش المخدر الذي قامت بعض الدول بتقنينه، مثله في ذلك مثل أنواع من المخدرات البسيطة التي لا تضر كثيرا والذي أجازته بعض الدول المتقدمة على شرط أن تكون للاستخدام الشخصي البحت وتجرّم تسويقه وبيعه والمتاجرة به . هكذا هو الدين، سيكون ضارا لو زاد استهلاكه لذا يجب تناوله باعتدال ومنع تسويقه والمتاجرة به . لا أنفي حاجة العامة له والبسطاء من الناس الذين يتعاطونه لا سيما في ظل انعدام العدالة الاجتماعية وتفشي الفساد من قبل أهل السلطة فيبحث أولئك المساكين عن مخدر مؤقت . هو مثل الأعضاء الحميمية للإنسان . . يمكنه أن يتفاخر بها بل ويتبجّح بما يملك أسفل هناك ولكن عليه أن يبقيها مخفية تحت ملابسه وأن لا يبرزها أو يلوّح بها للآخرين لا سيما الصغار منهم .

ثم كيف يا رب يكون الدين تجارة ويكون فعل الخير بيعا مؤجلا تقبض ثمنه لاحقا كما تقول في كتابك، . . هل أدلكم على تجارة، وإن الله اشترى من المؤمنين . . فاستبشروا ببيعكم . أنت في ذلك نافستَ أولئك الذين يلومهم المعتذرون من بعض أتباعك حين يرون قوما منهم يتخذون من زيّهم وحالهم مصيدة للآخرين ويتاجرون بالدين إما عن طريق البصق على المحسودين أو فك الطلاسم عن المرضى والمسحورين أو جمع المال باسم المحرومين وشعارهم في ذلك يا باغي الخير أقبل . يحسب المعتذرون من أبنائك ذلك تطفلا من أولئك على ما يرونه الدين الحق واختطافا له من بين أيدي أبناءه في الوقت الذي تقوم

أنت أيضا بالبيع والشراء باسم دينك. يفعل أتباعك الخير طلبا للمتع والملذات والجنس مع من تخبأه لهم في جنتك من حوريات، تقيس لهم أعمالهم بالوزن والمكاييل . . وكأننا في محل بقّال يضع الميزان ليقيس مقدار الخير والشر، أيهما رجحت كفته فهو نصيبه. بينما أفعل أنا وغيري ممّن لا يؤمن بدين، نفعل الخير بدون مقابل . . لا نفعله لكنز مخبأ لنا كما يزعمون بل انطلاقا من إنسانيتنا وأخلاقنا التي تتمنى الخير للناس كافة وترجو الإحسان لهم وتأمل بمبادلتنا نفس الشعور. هم يفعلون الخير، ليس لأنه خير، بل لأن هناك أجرا عليه مخبأٌ لهم، ويفعله من هو مثلي لأنه خير في حد ذاته من دون أن أنتظر ثوابا لذلك . . مثلما أنني أمتنع عن عمل الشر ليس خوفا من عقاب وعذاب ونار كما هو حال أتباعك بل لأنه شر . . ألا يكفي ذلك؟ بل أليس ذلك أرقى وأتقى وأنقى ممن تكون بوصلة أخلاقه مرتبطة بميزان يقيس حسناته وسيئاته ليعطيه لقائها نصيبه من ثواب وعقاب ينتظره.

يريدون منا يا رب أن نصدق بك ما دمنا قد ولدنا في أرضهم . . حسنا، ثم ماذا؟ لو قبلنا بذلك وبأن هناك حياة أخرى، ما الذي يحلّه ذلك في دنيانا، ما المصاعب التي ستنتهي من حياتنا إذا قبلنا بذلك الأمر وسلّمنا أن هناك عالما غيبيا بعد الممات . . معظم من حولي يقبلون بذلك ولا أجد شيئا قد تغير فيهم. ما الفائدة التي قدمها كتابك للبشرية جمعاء وليس لاتباعك فقط ولم تكن موجودة قبله ؟ هل تحسنتم أحوالهم أو تعدلت أمورهم أو ارتقوا في سلم الأمم . . يقولون ستذهب للجحيم إن لم تؤمن بالجحيم، حسنا سأذهب لاحقا، لكن ما الذي غير ذلك في حياتي الآن؟ هل إيمان أتباعك بجحيم في حياة أخرى جعل منهم أناس أفضل وأرق وألين وأسلم أم جعل منهم أناس أغلاظ متحاربين متخاصمين . . ثم أي طائفة يا رب ستقبل بها؟ هل تقبل جواز المرور من كل أتباعك بغض النظر عن دياناتهم وانتماءاتهم العقدية؟ لمَ إذن تزعم كل طائفة أن جواز الآخر لا يُقبل به في مملكة السماء وأن تأشيرة الدخول هي فقط تلك الممنوحة لهم من قبلك. لم لا يكون هناك تبادل للأدوار فيجرب أتباع كل عقيدة ومذهب دين غيرهم . . يتخلى المسلم مثلا عن دينه ليصبح نصرانيا مدة معينة

فيرتاد الكنيسة بدلا من المسجد ويصلي هناك . . أسيجدك هناك يا رب؟ أنت الذي كنت تلتقيه في مسجده، ومن سيجد النصراني حين يغير دوره ويرتاد المسجد هو الآخر، أسيجدك أنت أيضا هناك؟ ليت شعري . . من سيجد من؟

خمسون عاما قضيتها أعتنق نفس الدين الذي اختارته لي الصدفة حين ولدت في هذه البقعة من الأرض . . أيمكن لأحد من أتباعك يا رب أن يقدم استقالته ويتوقف ولو مؤقتا عن اتّباع دينك . . أيمكن أن يصحو أحدنا ذات يوم ليقرر أن يستقيل من دينه بعد أن اكتشف أن المدة قد طالت به وهو على نفس الدين والمنهج؟ ربما أحس بالملل ويريد أن يغير مذهبه ويجرب دينا آخر أو يأخذ إجازة مثلا للراحة أو للتغيير بعد طول عمل، نعم فالدين دوام والتزام كالوظيفة . . هناك التزام بالقواعد والإجراءات وهناك بعض الأعمال والممارسات البدنية وهناك زملاء آخرون في الوظيفة يشاركونك نفس العمل وهناك ترغيب وترهيب، تُكافأ على الأداء الجيد وتتعرض للمسائلة أو حتى الفصل إذا تدنى مستوى أدائك في العمل. مثلما أنك تستطيع أن تستقيل من الوظيفة ألا يمكن أن تستقيل من الدين - بغض النظر عن السبب- أم أنه ورطة لا خلاص منها؟ يمكن لأحدهم أن يغير وظيفته ويباشر عمله في وظيفة أخرى، هل يمكن أن أغير ديني وأجرب دينا آخر لأرى كيف يكون . . لم لا يحق للمسلم أن يجرب المسيحية مثلا ليرى إن كانت فعلا مثلما يحكي المسلمون عنها ويقولون أو أن يجرب البوذية ليرى هل هي مثل ما يدّعيه قومه عنها؟

مثلما أن الموظف يحصل على تعويض بعد سنين من العمل فيجد راتبا تقاعديا وخدمات صحية له ولعائلته، ألا يحق لرجالك التقاعد بعد تلك السنين من الالتزام بدينك؟ ألا يتوفر لأحدهم وضع تقاعدي من الدين يرتاح تحت ظلاله فيما تبقى له من سنين في هذه الدنيا . . لا تحيلني يا رب الى جنتك وتقول لي أن التقاعد إنما سيكون هناك فما ذاك الا العذاب الأبدي حتى ولو قضى وقته كله في افتضاض الأبكار. قد تسألني وما الذي سيتغير لو أنك منحت تقاعدا لرجالك . . سيتوقف عن أداء الشعائر الظاهرية -هذا إذا كان ممارسا لها-

وتقديس كثير من الأمور والفكاك من بعض المعتقدات . سيعطي لفكره إجازة خارج نطاق العمل . . يتأمل وضعه الجديد وإذا لم يرتح لما وجد يعود مرة أخرى للدوام . ألا يستحق رجالك أن يجربوا حياة غير حياتهم ولو لفترة مؤقتة ويغيروا من طريقة تفكيرهم ويتقمّصوا شخصيات الآخرين لينظروا للآخر بمنظار الآخر وليس بمنظار أنفسهم كي تسقط الجدران المصطنعة وتختفي العداوات المفتعلة التي صنعتها الأديان وتنتهي الحروب ، . . كل الحروب بين البشر . حتى لو لم يقدم الدين سببا مباشرا لشن الحروب فهو بالتأكيد قدم لأصحابها العذر لارتكابها .

نظرية التطور

عزيزي الله ،

كنت أحد أتباعك المؤمنين والمحافظين على أداء طقوس الدين التي يفسرها لنا رجالك المخلصين وما أكثرهم في بلدنا . . لا أدري بالضبط كيف أشرح لك يا رب موقعك من الدين بالنسبة لي وربما لبعض من هم مثلي مع أنك رب الدين وهو الطريق للوصول لحضرتك كما يزعم أهلك ودعاتك. صحيح أني كنت أدعوك باسمك وأصلي من أجلك لكنّ بوصلة الوصول لجنابك تاهت في طرقات معبد دينك وأداء طقوسه التي غرقتُ في شعائرها برتابة وتكرار. أرجو أن لا يتكدر خاطرك حين أقول أني لم أكن أهتم بك كثيرا . . كان تحسسي من الدين ومع الدين ومن رجاله القائمين عليه الحاكمين بأمرك. ولأكن أكثر دقة ، من تدخل الدين في أمور حياتي الشخصية وتفاصيلها التي لا تليق بمن هو مثلك أن يتدخل فيها بمن هو مثلي ، ماذا ألبس وكيف البس ، ماذا آكل وكيف آكل ، كيف أقص شعري وكيف أقضي حاجتي ، متى أتسوق ، لأن الأسواق تغلق من أجلك. لم أعرْ شخصك الكريم من الانتباه الكثير بل كنت أمامي خلف ستار وضعه رجال الدين ، نعم أنت محور حديثهم وجوهر دينهم لكنك بقيت بعيدا عني صعب المنال أو هم أرادوك كذلك حتى بدأت أتعرف على فكرة كنت قد سمعت بها من قبل ولكن من بعيد . . في سني الأولى بالجامعة حين يهوي الينا دعاتك من أجل تثبيت مكانتهم بيننا يأتون على ذكر تلك الفكرة الخطيرة بزعمهم – صدقوا وهم كذوبون– هي خطيرة فعلا لأنها ترعبهم. عرفت تلك الفكرة من أعدائها وأزحتها من لائحة تفكيري لأنهم أرادوا لي ذلك بعد أن وصموها بالكفر وألصقوا بها من التهم ما ألصقوا ، والأسوأ أنهم ضلّلوا المتلقي المحايد فنسبوا لها ما ليس فيها . . تلك هي نظرية التطور.

مضت ثلاث عقود عشت فيها وفيّا لأتباعك ، أمارس ما يطلبوه مني في حياتي الشخصية ، أشاركهم فيما يعتقدوه تقرّبا منك وتديّنا لك . . أمتنع عن الشراء وقت الصلاة وأتوقف عن الاستماع للحنٍ جميل وقت الأذان وأطلب من

بجانبي أن لا يأكل بيساره وأدفع من مالي زكاة حسب ما تمليه معادلات رجالك. أصلّي كما يريدون، وأتزوج كما يفصّلون وأتعامل مع الغير حسب ما يتصورون . . لم أفكر بك شخصيا فأنت صعب المنال وكل ما علي هو أن أدين بدين رجالك لأعيش كغيري من الناس، لكن شيئا ما بعقلي الباطن يخبرني بأننا مضحوك علينا من قبل رجالك الذين يستمدون شرعيتهم من دينك. مع مرور الوقت تبدو بوادر الأزمة بين ما يريد أتباعك وما يريده العالم تظهر على السطح في حياتي القصيرة الفانية، استغرق ذلك مني وقتا ليس بالقصير كي أخرج من الصندوق الذي وضعوني فيه وأفكر خارجه، لكن الصوت الآخر المخدّر المضلّل يحاول أن يقنعني بأن الأزمة هي في التطبيق وليس في الدين نفسه، في تفسير الدين وليس في محتواه، في رجاله وليس في جوهره . . وأن أي مشكلة أو ما قد يبدو أنها مشكلة إنما هي في الفهم وليس في النص، وأنه يمكن درء تعارض العقل والنقل. كلما حاولت أن أستيقظ يواجهني هذا الصوت القادم من عمق الأوراق الصفراء ومن قبور الموتى الأحياء.

لنعد الى نظرية التطور، كما قلت سابقا. لم أهتم لها كثيرا في صغري لأن نظامنا التعليمي وكما تعلم يا رب لم يكن يسمح بالاطلاع على، فضلا عن مناقشة أفكار، خارج إطار مؤسسة الدين التي يديرها أتباعك أما تلك التي لا يسعهم إخفائها لشهرتها فكل ما عليهم هو أن يصموها بالكفر والإلحاد ويكون هذا كافيا لتأمين دينك وإحاطته بسياج من الجهل. أما من يفلت من ذلك السياج ويجد في نفسه التوّاقة للمعرفة الرغبة في تعلم الجديد فسيصطدم بجيش من المضلّلين والجهلة الذين يحوّرون تلك النظريات والمعارف ويقوّلونها مالم تقله خيانة للعلم ويبقى المؤمن الذي لا يجيد لغة غير العربية مُضلّلا مخدوعا وأسير ما يُكتب في لغته. كنت أُجيد لغة أخرى لكن قراءاتي العميقة بتلك اللغة كانت في تخصصي المهني البحت أو أشياء عامة سطحية لذا لم تلفت انتباهي وبالمناسبة فإن الكثير من أبناء أتباعك الذين سنحت لهم الظروف السفر لطلب العلم في بلاد الكفر يعودون الى دولة حامية الدين وهم أكثر تلّونا من ذي قبل، بعضهم يعاني من

أزمة هوية فيعيش عالمين متناقضين والكثير ينكفئ مع فريق المعتذرين دفاعا عن دينك والقليل الآخر يتاجر بخرافات الإعجاز العلمي في كتابك.

ما الذي يجعل حضورا نابها من صفوة المتعلمين الذين هجروا مجتمعاتهم المؤمنة لتلقي العلوم العالية في بلاد الكفر قد تدربوا على استخدام عقولهم هناك في المعمل والمختبر وقاعات الدراسة يطفؤونها في حضور أتباعك . . كيف بعقل نابه يعيش في عالم الغرب، يستيقظ أول النهار في مجتمع يطلب الدليل ويستخدم البرهان ويستدلّ بالمنطق في تعاملاته يغفل ذلك كله ليصدّق آخر النهار بآيات الإعجاز في كتابك. أتدري يا رب أني أشعر أحيانا أن الدين كالفيروس ينتشر بيننا بقوة، يبدأ منذ الصغر ولا يموت بموت الإنسان بل ينتقل الى غيره ويصعب الفكاك منه. هو فيروس من عنصر مركب ففيه جانب ذاتي الحركة يعيد صنع نفسه بنفسه ويقوي تركيزه كلما ضعف وهفت حتى أن المصاب به يعيد تذكير نفسه به كل يوم وليلة في أذكار لا تنتهي كي يزيد من فاعليته بل ويتواصى مع الأخرين في ذلك وهناك جانب خارجي يتحكم فيه رجالك حين يقومون بحقن ذلك الفيروس ونشره بين الناس في الصغر والمداومة على تطويعه في الكبر لينقاد ضعيف المناعة ويتخدّر قويها بعد أن زادت الجرعات ودامت.

نحن نتلقى لقاحا من نوع خاص غير الحصبة أو الثلاثي . . لقاح نأخذه لسنوات عديدة بجرعات منتظمة في إبر نتلقاها ليس في العيادة وإنما في البيت والمدرسة والمسجد. لا تعطيه الممرضة وإنما يبدأ به أتباعك من المعلم والمطوع وإمام المسجد والشيخ ثم تنتشر أماكن التطعيم في الأسواق والمدارس ووسائل الإعلام ليعمّ المجتمع بأسره وتحت نظر الدولة . . مثل بقية الأمصال، هو جرثومة أو فيروس تم التعامل معه بحيث أصبح ضعيفا لا يحدث مرضا وإنما يحرض الجسم على إنتاج أجسام مضادة مقاومة للعرض الذي قد يتعرض له الجسم لاحقا. أما العرض الذي قد يتعرض له الجسم لاحقا – لا سمح الله – فهو التفكير بحرية وأما اللقاح فهو "تطعيم الدين" . . تطعيم يحميك من التفكير الحر ويقودك الى تسليم عقلك لمن يفكر عنك، هو لقاح محلي أنتجته مختبرات جامعاتنا ومدارسنا . . يؤخذ في

الرأس وليس في العضد، عن طريق العين والأذن (السمع والمشاهدة والقراءة). يبدأ بتركيز منخفض الدرجة ثم تزداد الجرعة مع نمو الشاب . . أما من يتخلف عن أخذ جرعته فهو عرضة للإصابة بأنواع من الأوجاع أدناها التغريب وأعلاها التكفير. . طبعا هناك أنواع من الحقن والأمصال، منها الذي يبدأ منذ الصغر ومنها الوقائية الخاصة للشباب وهناك جرعات مكثفة وجرعات تعزيزية للكبار . . وهكذا.

أول طريق الفكاك يا رب هو أن يتحسس الإنسان رأسه ولا يسمح لأحد أن يستعير عقله فضلا عن أن يتعدى عليه أو يسرقه أو يستخدمه أو ينوب عنه في استخدامه أو يوحي اليه بدون استئذانه أو يؤثر عليه بدون رضاه، لا أذكر بالضبط متى كان ذلك الاستقلال في التفكير بالنسبة لي إذ قد سلّمت رأسي لغيري كي يفكر عني ومَنْ أسوأُ من أتباعك المنتفعين يا رب كي يستلموا الرؤوس. وثاني دروب الفكاك هو نفي القداسة عنهم والتعامل معهم كبشر والنظر الى كتابك كنص تاريخي قابل للتحليل والبحث والدراسة بتجرد كأي وثيقة تاريخية. والثالثة هي إعمال النقد في الحكم على العالم من حولنا، إذ أقبل بأن يكون هناك أسئلة لا نعرف إجابتها بعد، حول الكثير من الأمور من أن أحصل على إجابات مُسكّتة من أتباعك لا تقبل الدليل والبرهان فضلا عن النقاش والاختبار . . وبعدها لا يبقى شيء، إذ تسقط بقية الأقنعة واحدا تلو الآخر.

تصور يا رب أن حياتنا بكل تفاصيلها ودقائقها الصغيرة منذ ولادة الإنسان وحتى دفنه قائمة على فكرة غيبية . . يولد الصغير ويؤذّن في أذنه ثم يطهّر بسبب كلام يروى عنك . . ثم يلقّن آيات قصيرة من كتابك ثم يدخل المدرسة ليلقّن تعاليم أكثر، نقلها أتباعك عنك. يكبر قليلا ويبدأ التعوّد على الصلاة لك والتعبد في محرابك والانتظام في الصفوف مع الآخرين جهتك . . يجد نفسه في مجتمع يحكم خطواته بما يمليه أتباعك نقلا عنك، افعل ولا تفعل. يتوقف عن العمل وقت النداء لصلواتك . . يصل مرحلة البلوغ وينجذب للطرف الآخر لكن

شعور الذنب المغروس فيه بسببك يجعله يستغفر ويطلب الصفح منك. تزداد نزواته وتزداد معها جرعة الشعور بالذنب والخوف منك فيلجأ اليك ويوجه دعائه لسمائك . . يتزوج ويمارس الجنس بناء على تعليمات رجالك ووصفاتهم. يعمل ويدّخر ماله بناء على قول أتباعك واختياراتهم له من شركات تتبع منهجك . . يمتنع عن الدخول في بعض أنواع الشراء والبيع بسبب تعليمات أتباعك التي أخذوها من كتابك. يسافر ويستمتع ويـــــــــــــرفّه عن نفسه بمقاييس وأطر وضعها أتباعك . . يمرض ويموت ويغسّل ويدفن بناء على تعليمات أتباعك التي ساقوها من كتابك. لا شيء فيما سبق يخضع للعلم والعقل والمنطق والتجربة . . بل كل هذا البناء المعقد المفصل في المجتمع وأحواله هو نتاج فكرة غيبية محضة فسّرها أتباعك نقلا عنك وفصّلوها لنا وكأنهم قد أتوا حديثا من مجلس جمعهم بك . . يآه، ما أعظمك من فكرة يا رب.

الدين عندنا هو كل ما سبق وهو لا شيء فيما سبق. هو الذي يتحكم في مصيرنا ويوجه مسارنا ويرسم مستقبلنا في الوقت الذي لا يعرف طريقنا ولا شيء عن وجهتنا أو دربنا. هو الذي يفصّل لنا حياتنا وعلاقتنا ببعضنا البعض ويتدخل في كيفية لباسنا وطريقة أكلنا وشربنا ومراسم زواجنا وبيعنا وشرائنا وطقوس مماتنا وحتى مواراتنا للتراب في الوقت الذي ليس له أدنى علاقة بأي من ذلك من قريب أو بعيد. هو ذلك الذي نحاول أن نقنع قلوبنا به في الوقت الذي ترفضه عقولنا ومع ذلك يتسلل اليها وينسج خيوطه داخلها . . هو كل التقليد ولاشي غير التقليد . . هو متابعة من سبقنا لعجزنا عن الإتيان بأي جديد . . هو الركون للأجوبة المعلبة والتفسيرات الخاملة بدلا عن إثارة الأسئلة والبحث عن المعرفة، هو الخضوع والخنوع بدلا من التحرر والانطلاق . . هو المنهج الذي تتحول معه بمرور الوقت الأفكار التي لا تحمل أي دليل أو برهان الى عقائد غير قابلة للنقاش والتساؤل باستخدام قوة الدولة ومؤسسات المجتمع . . الدين عندنا هو كل شيء وفي نفس الوقت هو لا شيء.

أفهم تعلق الإنسان بالحياة ورغبته في الإستزادة منها ومن أجل ذلك صنع حياة أخرى بعد الممات لعله يلتقي فيها بأحبائه من جديد هذا إذا لم تفرّقهم أنت يا رب بوضع أحدهم في جنتك والآخر في جحيمك. هل أتباعك يحتاجون الى هذا الوهم ليعيشوا في دنياهم . . أترعبهم الحقيقة الصارخة الى هذا الحد كي يهربون منها أكثر مما يهربون من الأوهام والخيالات؟ هل الوهم هو ما يعطيهم الأمل . . الأمل بغد لن يأتي وطموح لن يتحقق وعالم لن يولد؟ عندما تُؤخذ منهم أحلامهم وتقصرُ أعمارهم ويموت أحبابهم وتفوت عليهم الفرص لا يتبقى لهم شيء، وتصبح الحياة بلا معنى سوى تلك التي بعد الممات يعوّضون بها ما فاتهم. كون الأشياء تنتهي وتصل الى خاتمتها لا يعني أنها بلا معنى أو قيمة، بل إنّ من الأشياء ما تزداد قيمتها كونها فانية. معرفتي بقصر حياتي واعتقادي بأن ليس لي فرصة أخرى يجعلني أفعل كل ما بوسعي لأحياها حرا من الأوهام والأغلال وأسخّرها لمنفعتي ومنفعة غيري من الكائنات لتكون دنياي هي الجنة التي أسعى لتحقيقها ويُكمل غيري سعيهم في ذلك بعدي بدلا من انتظار جنة مزعومة في خيال أحدهم.

لا يرى أتباعك في الحياة سوى معاني الغدر والخيانة وأنها متاع، بل هي متاع الغرور وأنها لا تزيد عن معبر لما بعدها فيتظاهرون بتركها ليستغلها بعضهم . . وصفوها بالمرأة البغي التي لا تثبت مع رجل وأن آلامها متولدة من لذاتها مثلما أن أفراحها صنو لأتراحها ومع ذلك فهم أكثر من يعبّون منها. هم لا يرون فيها ما يستحق العيش من أجله إذا لم ترتبط بنص مقدس من عندك ودنيا غيبية في جوارك ويعجزون عن الإحساس بالأشياء الملهمة فيها كما هي، بدون نسبتها لك. لحن جميل، منظر رائع لغروب الشمس أو لقوس قزح، امرأة حلوة الملامح، ليلة هادئة في الصحراء تحت قبة السماء، مشاعر الحب والسعادة، معاشرة الأصحاب والأحباب . . كل ذلك ليس ملهما عندهم لذاته ولجماله الذاتي النابع منه بل لأن قوة خارجية أسبغت عليه ذلك. هل تخلو كل تلك الصور من المعاني لولا أن أحدا ما في السماء أضفى عليها تلك الدلالات . . ألا يمكن أن أستمتع بجمال غروب الشمس دون أن أعتقد بأن كائنا غيبيا يمسك

بطرفها أن تقع من الجانب الآخر؟ أتدري يا رب أن الشيء المادي الذي يبقى منا إنما هو ذرات أجسامنا تعود للطبيعة في شكل نبتة أو ربما يرقة أو فراشة بينما الشيء المعنوي الذي يبقى إنما هي أعمالنا التي تركنا والذكرى التي استودعنا في أذهان أحبابنا وأصحابنا، أما سؤالهم عن ذاك الذي اخترعوه من روح ونفس وجوهر وأنا، فإنما تذهب للمكان الذي جاءت منه أول مرة. هم يؤمنون بأن الحياة بعد الموت بينما أرى أن الحياة هي ما قبل الموت.

عزيزي الله،

ها أنذا أفعل كما تفعل أنت في كتابك، أنتقل بين الأفكار والحكايات بدون ترتيب وتنظيم ولكني إنسان يا رب وعرضة للخطأ والنسيان بينما أنت الرب الذي لا يجري عليه الخطأ ولا النسيان ومع ذلك ستجد من أتباعك من يبحث لك عن تبرير وتفسير وربما يسميه سبب النزول. لنعد الى نظرية التطور مرة أخرى ولنبقَ فيها هذه المرة حتى لا يشغلنا الإستطراق في الحديث . . ما زلت أذكر اليوم والساعة التي تعــــــــــــرفت فيها عن قرب على نظرية التطور في برنامج تلفزيوني يُعرض في أحد القنوات ببلاد الكفر، كنت وقتها في رحلة خارج بلدنا، دولة الدين. شاهدتُ البرنامج ثم عدت لأقرأ عنها أكثر بلغة أهلها وكأني لأول مرة أسمع بها بعد أن جاوزت منتصف عمري بقليل. قرأتها كما هي بعيدا عن تقوّلات أتباعك ونقولاتهم . . رأيت فيها رسما جميلا وتفسيرا رائعا لذلك التنوع البديع الذي نراه في شجرة الكائنات الحية . . هي بحق صدمة لمن يفهم معناها الحقيقي لأنها يا رب تجعلك تعيد التفكير في أصلك أيها الإنسان، من أين أتيت وماذا كنت وكيف وصلت والى أين أنت ذاهب. هل يعقل أن تكون يا رب قد خلقت المخلوقات قبل الاف الملايين من السنين بشكلها الحالي وهيئتها التي نراها عليه اليوم ثم بعثتهم في الأرض؟ هل يعقل أن يكون الإنسان قد ظهر فجأة على وجه هذه الأرض في شكله الذي نعرفه اليوم، وهل الزرافة والفيل والعصفور والشجرة التي نراها اليوم هي نفسها التي عاشت قبل ملايين السنين؟ هل عندما بدأتَ الخلق في ساعة الصفر، صنعتَ جميع المخلوقات بشكلها الحالي

دفعة واحدة ثم نثرتهم في مناكب الأرض وهوائها وبحارها واستمروا بالتكاثر الى يومنا هذا؟ . . أيعقل ذلك؟

لا يمكن أن يكون الإنسان القديم قبل الاف وملايين السنين هو مثل ما أنا عليه اليوم بنفس البنية الجسدية والإمكانات العقلية بل الأقرب للمنطق والعقل هو أن المخلوقات التي عاشت قديما كانت في شكل آخر ثم طرأ عليها تغييرات طفيفة بطيئة مع مرور الزمن الطويل لتصبح كما هي عليه اليوم. حتى الإنسان في وقته القصير يتدرّج في خلقه من بطن أمه وحتى يشيخ ويمر بأطوار وتغيّرات نلاحظها نحن في حياتنا الفانية، بل إن هناك من الحيوانات الداجنة ما قام الإنسان الحديث بإجراء تغييرات طفيفة مقصودة فيها مع مرور الزمن . . إذن الفكرة ليست غريبة تماما كما أنها ليست جديدة. حين بدأت أفكر في ذلك وأعيه، فهمت ذلك الخوف الذي يُصاب به أتباعك من تلك الحقيقة التي حاولوا تجاهلها ثم عندما لم يسعهم ذلك أصبحوا يزوّرون معانيها أو ينزلونها لدرجة الفرضية حين يتحدثون عن النظرية وينفوا عنها أن تكون حقيقة علمية أو يقوّلونها مالم تقله بغية التضليل على المتلقي المحايد مع أنه وكالعادة كان بإمكانهم ببساطة تلفيق حل لدرء التعارض بينها وبين ما يعتقدوه، فهي لم تتحدث عن أصل الخلق وإنما عن هذا التنوع البديع الذي نراه فبإمكانهم أن يقولوا أنها الآلية التي اخترتها يا رب للخلق، كل الخلق ومنهم البشر . . تسيّرها كما تشاء بدلا من أن تكون خبط عشواء، وأن أشباه البشر حين وصلوا الى قمة الهرم في سلم التطور وأصبحت فئة منهم بشرا ناضجين، اصطفيتهم ووهبتهم الوعي بأنفسهم وصاروا مستعدين لحمل الأمانة فبعثت لهم الرسل حاملين معهم الأديان . . ألم تقل في كتابك وخلقناهم أطوارا.

أحسب أن أكثر ما يُرعب أتباعك هو تهاوي فكرة الخلق القائمة على كن فيكون، جوهر القدرة الإلهية ومحور إعجازها . . كيف يتخلّون عن تلك العبارة السحرية التي طالما داعبت خيالاتهم وأسرَت عقولهم . . كيف يتخلون عن أمرك الذي هو بين الكاف والنون تحُوّر به البكتيريا وحيدة الخلية الى فيل

ضخم أو تجعل من الأميبات التي لا تُرى حوتٌ عظيم في غمضة عين؟ يتخلون عن ذلك كله من أجل عمليات تحورية وطفرات جينية بطيئة مملة لا نراها ولا نشعر بها اليوم. هل شاهدت يا رب جمهورا يذهب الى مسرح ويشاهد عرضا سحريا يقوم فيه الساحر بإخراج أرنب من قبعة بعد أن يتلوا عليه بعض الكلام . . لا ليس كن فيكون، ولكن شبيه به. تصور لو أن الجمهور اضطر للانتظار خمس أو عشر دقائق لكي يطل الأرنب من القبعة بدلا من أن يقفز فجأة بمجرد تلاوة التعويذة السحرية . . سيشعرون بالملل ولا بد. أما لو مضت ساعة دون حدوث شيء فلما بقي أحد منهم في الصالة . . جمهورك يا رب مثل هؤلاء، يعشقون فخامة اللحظة الالهية التي تعلن فيها وجودك وتمارس بها عظمتك كما بشّر بها أتباعك، تُبطل فيها نواميس الناس وتعلو فوق الموجود والإحساس دون الحاجة الى وقت مستقطع بين الكاف والنون. هم لا يكترثون لبطء التفسير الأزلي الذي يمارسه أهل العقل والفكر من بعض خلقك بل يتعلقون بما وراء العقل هربا من واقع مرير جرّه عليهم ظروفهم التعيسة.

مثلما أن نظرية التطور تفسر لنا تنوع الحياة هي أيضا تروي لنا بدايات البشر الأولى وهي رواية محبكة السبك تقف على أكتاف العلم الحديث، تستمد منه فصولها في وجه الأساطير التي اخترعها الإنسان القديم ليرضي تطلعه الى المعرفة وتشوقه للمجهول بوسائله البدائية القديمة. قد يكون بطء تقبل العامة لنظرية التطور هو، فضلا عن مهاجمة أتباعك لها وتضليلهم لمتلقيها بنسبة ما ليس منها إليها، طول العمر الزمني الذي تحتاجه ليلاحظها العامة من خلقك فهي ليست كقوانين نيوتن عن الجاذبية مثلا أو مبدأ بيرنولي والتي يصدّق بها أتباعك دون الحاجة الى فهمها حينما يحلقون في طائرة بين السحاب. ارتباطها بتنوع الحياة وليس بالتكنولوجيا والمنتجات الاستهلاكية يجعلها بطيئة الاستيعاب لكن عميقة التأثير . . والعميق بطيء. بالرغم من تطبيقاتها التي بدأت قديما في التدجين وصولا الى استخداماتها اليوم في الكيمياء الحيوية وعلوم الوراثة إلا أن العارفين في ديارنا والذين يعوّل عليهم في نشر النور والمعرفة يخشون من سطوة المجتمع

الذي لا يقبل النقد أو التشكيك في معتقداته التي زرعها أتباعك بينهم . . يا لها من فكرة مخيفة !

من بين الأسباب التي تجعل أتباعك يخشون النظرية هي أنها تهدم كل الجدران الوهمية والحواجز الافتراضية بين الإنسان وسائر المخلوقات وتجعله مثل بقية الحيوانات ، ليس له مركز استثنائي خاص يختلف فيه عن غيره من الكائنات فلم يأتي للوجود بطريقة مميزة تختلف عن المخلوقات الأخرى ولنكن صريحين أكثر مع بعض يا رب ففكرتك عن الخلق كما وردت في كتابك بسيطة وساذجة تصلح للصغار حين يمسكون بأقلامهم يلوّنون بها كراساتهم . . طين وماء وحدائق غناء وخلاف بينك وبين أول البشر بسبب طعام يأكله من شجرة بعد غواية من الشيطان . قارن ذلك بفكرة تطور الحياة حسب قانون الانتخاب الطبيعي والطفرات التي تحصل في الجنس الواحد من الأبسط الى الأعقد وتدرجها من الأدنى الى الأرقى . متى ما فهمت حقيقة ذلك لا يسعك أن تخبأ رأسك في التراب أو تكمل حياتك بدون أن تتساءل عن البدايات وتكتشف حينها أن الإنسان إنما هو مثل غيره مما يدب على هذا الكوكب ، ساقته آليات التطور الى أن يشتدّ ذكاءه فوق قرنائه مع الوقت وينمو إدراكه بينهم الى أن أصبح يتحكم في مصيره ومصير غيره بنفسه . لا يهم أننا نعود في أصولنا الى فصيلة الحيوانات العليا من الثدييات ولا يحط ذلك من قدرنا اليوم فأن نتطور من أصناف أقل شأنا الى الأعلى إنما هو رقي بل وأفضل في رأيي من أن ننزل من صحبة الآلهة الى بشر . . مثلنا في ذلك مثل الطالب المبتدئ الذي يتعلم ويفوق أقرانه ليصبح الأول في فصله ، أليس ذلك أفضل من الطالب النجيب الذي يتخاذل ثم يعود بليدا في نهاية المطاف !

كان لتعرفي عن قرب على نظرية التطور وقراءاتي عنها ومتابعتي لما يكتب حولها وما تقدمه من تفسير لظواهر الحياة وتنوعها وترابطها بمثابة الكشف الكبير الذي لم استوعبه قديما لجهلي بها . لم أكن في ما مضى من عمري مهتما بالقراءة العلمية الجادة في هذا الموضوع ، ربما لانشغالي وربما لعدم سهولة توفر المادة

العلمية في نسختها الأصلية كما هي اليوم مع عالم الإنترنت . . هي كالصدمة التي تأخذ بلبّك وتجرك من عنقك وتحاول أن تجعلك تستفيق مما أنت فيه من ظلام صنعه آخرون لتبقى فيه أو من جهل نسجتَه حولك بنفسك من دون قصد، كما هو الحال بالنسبة لي. ما جعلني أعيد النظر في قناعاتي الشخصية على ضوء تلك النظرية هو نشأة الإنسان الحديث وبداياته والذي أجده أكثر إثارة وتشويقا من مسألة الخلية الأولى لإنّ هذي الأخيرة ليس لها جواب معروف حتى الساعة لكن تفسير الإنسان الحديث ومسألة تطوره عبر مراحل أشباه البشر وترقّيه في سلم المعرفة ليست صعبة الإجابة ولا هي مستحيلة بل إن تصوّر ذلك في إطار نظرية التطور هو أمر منطقي ومفهوم ويتماشى مع الأدلة العلمية المختلفة سواء من السجل الأحفوري أو التوزيع الجغرافي أو التشريح العضوي والسمات المشتركة في الأجنة مثلا أو المورّثات والجينات . . وفي نفس الوقت يختلف ذلك التصور العلمي المنطقي السلس عن قصة الخلق المدهشة والمذكورة في كتابك، مع أني أعترف لك يا رب بأن كتابك ذكي في هذه الحكاية إذ لم تتدخل في وصف تفاصيل تلك القصة بل جعلته كلاما عاما يمكن تفسيره حسب مزاج القارئ وفهمه الآني في وقته وزمانه إذ لو تدخّلت في ذكر تفاصيل أخرى لربما تورّطت في أخطاء سيكتشفها العامة . . خلقته من طين وكفى! الكتاب العام، الخالي من التواريخ والمليء بعوالم خيالية لا يمكن لأحد أن يدحضها، هو كتاب ذكي يدوم طويلا قبل أن يكتشف أحد أنه ليس هناك من شيء فيه يستحق الدحض.

إذا أردت أن تكتب كتابا يدوم طويلا قبل أن يكتشف بطلانه أحد فاكتب كلاما عاما هلاميا عن أحداث وقصص غامضة وحكايات غريبة واستخدم الروايات الخارقة للطبيعة التي لا يمكن لأحد أن يدحضها أو ينفيها لأنها بالأصل من الأساطير والخرافات المتخيلة، مثل لو أن أحدهم إدّعى بأن هناك تنّينا بألف عين يقبع في نجمة الشعرى اليمانية ينفث لهبا وشواظا من نار تخرج من فمه الأعوج ويقدح الشرر من عينه الحولاء. ثم إياك إياك من اثنتين، توقف عن ذكر تواريخ مطلقة وان احتجت فلا بأس باستخدام تواريخ نسبية كزمن بين حدثين لكن لا تذكر تواريخ لأحداث معينة وتربط حدوثها بزمن مطلق. هذه واحدة،

والأخرى ابتعد عن التفاصيل فهناك تجد الشيطان بعينه ، المُشكل تجده في التفاصيل إلا في حالة الروايات الخارقة للطبيعة والتي ذكرتُ طرفا منها سابقا كتنين الشعرى اليمانية ، هنا يمكنك أن تذكر كل ما تريد من تفاصيل بل يُفضّل أن يكون كلامك في هذي بالذات مفصلا لأنه لن يتمكن أحد من أن يكذّب كلامك أو يبطله . . هذا يا رب هو بالضبط نموذج كتابك .

أسئلة حائرة

عزيزي الله ،

ما أنت يا رب وماذا تكون ، هل أنت حلمٌ في رؤوس النائمين ، هل أنت أملٌ في قلوب التائهين ، هل أنت رجاء في صدور المكلومين ، هل أنت أمنية في أذهان المفلسين ، هل أنت فألٌ في بال المتفائلين أم أنت سرابٌ في نظر العطشانين؟ . . هل أنت كتفٌ تستند عليها الرؤوس ، هل أنت حضن يرتمي فيه العاشقين ، هل أنت أب يحتمي به الصغار ، هل أنت أم يلجأ لها المحرومين ، هل أنت منارة يهتدي بها الضائعين؟ . . هل أنت بحر بلا ساحل أم سماءٌ بلا علو أم فراغ بلا محيط أم كون بلا حدود؟ . . هل أنت الحقيقة الضائعة أم العدالة المرجوة أم السعادة الأبدية؟ هل أنت هذا كله وأكثر أم لا شيء من ذلك وأصغر؟ ليت شعري ، إنما أنت فكرة في عقول العاقلين .

ما الذي تفكر فيه الآن . . نعم الآن ، في هذه اللحظة وهذه الدقيقة ، لابد أنك تفكر وإلا كيف تكون الها حيّا؟ ما الذي يخطر ببالك يا رب وأنت ترى ما أقوم به من كتابة خطاب لك وكأني أكتب لصديق أو قريب أجيب فيه على رسالته لي ، هل حاول أحدهم يوماً الكتابة لك أو الرد على رسالتك؟ . . كم من هؤلاء الذين كتبوا لك كان ردهم حرا طليقا غير خاضع لقيود أتباعك التي نسجوها حولك مثلما يردّ على أي رسالة تطلب منه أمرا أو تدعوه الى عمل ما؟ . . كيف تراني الآن في هذه اللحظة؟ هل تشعر بالغضب أم الانكسار والحزن أم ماذا بالضبط تحسّ به حين يقف أحدهم ويعلن أنه لا يعرفك ويحاول التعرف عليك عن قرب؟ أتبتسم لي في علو ملكوتك مثل ما يبتسم العارف بقصة ما وهو يسمعها من ابنه يرويها لأول مرة بشغف واهتمام وحرص على سردها بأسلوبه الطفولي البريء أم أنك غاضب مني لتجرّؤي علي الحديث معك ومكالمتك بأسلوب بسيط من دون رسميات وتكلف ودون أن أمر عبر وسطائك وأتباعك؟ . . هل أبالغ حين أقول كم أود وآمل أنك تنظر لي وأنت في عليائك

بعين الرضا والابتسامة تعلو محياك حين أفكر الآن وأتساءل عن ما يخطر ببالك وما الذي تفكر فيه . . أخشى أنني أبالغ قليلا في ذلك.

أنت يا رب مادة خاملة بليدة ساكنة مثل مواطن الدولة الريعية في مجتمع الرفاه بدولة حامية دينك حين تزداد ميزانيتها السنوية . . هبطت عليه ثروة من السماء فجأة ومن دون جهد منه ولا حساب وأصبح هناك من يحتكر السلطة ويوزع الثروة نيابة عنه . . وهكذا أنت، هبطت عليك ثروة إثر عبادة أتباعك لك بعد أن ظهر الوعي لدى الإنسان عقب عصور من التطور وصار يفكر خارجا عن جسده أما رجال دينك فهم الذين يوزعون تلك الثروة نيابة عنك ويحتكرونها أحيانا . . أليست العبادة ثروة والدين تجارة؟ الحكومة أو السلطة السياسية بالنسبة لنا تماثل السلطة الدينية لرجال الدين بالنسبة لك في الاحتكار وتوزيع الثروات أما المواطن الخامل في تلك الدولة الريعية فهو مثلك يا رب في عدم فعل شيء . . هلاّ مرة واحدة في تاريخ الكون قمت بعمل واضح وضوح الشمس بينّ صريح لا لبس فيه ولا شك وادّعيت أنه منك ونسبته لك؟ لا ألومك يا رب فأنت لم ترتكب خطأ حين صنعتنا بل نحن الذين أخطأنا حين صنعناك.

لمَ تحتاج الى أنبياء ورسل من طرفك وكلاء عنك ومندوبين لك ومتحدثين باسمك وموقعين عنك . . لم لا تتنزل الينا بنفسك وتزيل هذا اللبس حولك وتزيل اللغط عن من تكون . . لم لا تُظهر للناس سنى طلعتك وتُميط اللثام عن جلالك وتُبين للناس أحوالك؟ هل أنت مختبئ بسبب أفعال أتباعك عبر العصور وتحس بالخجل والعار من ذلك . . لا ألومك فإن من يرى من يتحدث باسمك لا يريد أن يكون له دخل فيما يفعلون. كلٌّ يطمعُ وصلاً بك وكل يدعي أنه منك واليك وكل يتحدث نيابة عنك وكل يقاتل تحت رايتك وكل يدافع عن كتابك ودينك وكل يزعم أنه يفهم مرادك ويعرف طريقك وكل يزعم أنه وجدك وكأنك ضائع تائه. في بيوتك تخرّ الأذقان سجّدا وتلتصق الجباه بالأرض طمعا في عفوك، وبإسمك تُعقد الألوية وتُرتكب المجازر دفاعا عن حرماتك وتحت رايتك تقام المعارك وتسيل الدماء من أجلك ولجنّتك ونارك يعلّق أصحاب المظالم

آمالهم فيك ونحو كعبتك يطوف الملايين ويحجون سعيا لرجاك . . كل هذا يجري تحت سمعك وبصرك وفي ملكوتك وأنت جالس منزوي في مكان ما ومختف عن الأنظار!

دعني أسألك سؤالا لا أنتظر منك جوابا له . . لمَ يا رب لا تتدخل في شؤون من خلقت، تصنعهم ثم تتركهم هكذا. لمَ أنت خامل الفعل مع أنك عالي الذكر؟ حين أرى فتى يمد يده ليضرب آخر أصغر منه أو بنتا أضعف منه أشعر بالضيق وتغلي الدماء في عروقي وفي أحيان كثيرة أتدخل حين أقدر لأني لا أطيق ما أرى من ظلم يقع أمامي . . ما بالك إذن وأنت ترى كل هذا الظلم الذي يقع بين البشر والمخلوقات وعلى مدّ العصور؟ ما الذي تشعر به حين ترى المظالم تُرتكب باسمك وأنت تراقب ما يحدث؟ دع عنك ما يقوله أتباعك من أنك تدّخر تصفية الحساب ليوم الحساب . . قل ذلك للبنت التي تعرضت للاغتصاب وعاشت بقية حياتها وهي ترى المجرم حرا طليقا، قله للذي نُهب ماله وسُرق بيته وهو يرى اللص يتجول في مدينته، قله لمن حُبس ظلما واتُّهم زورا، قله للذي عاش البؤس أو المرض أو ولد عاجزا طيلة حياته، قله للملايين التي عاشت وماتت وهي ترى الظلم في عيون ظالميها . . إن لم تتدخل في الحال وإلا فلا حال. إن تجيير المظالم وتحميلها على الآخرة يُطيل من العذاب ويزيد من الظلم، فالعدالة المؤجلة هي عدالة منقوصة يا رب. ثم إننا يوم الدينونة سنكون شيئا آخر غير ما نحن عليه اليوم كما أخبرتك سابقا، ألا ترى حين أشاهد فلما سينمائيا، وليكن من أفلام الخيال العلمي، كيف أندمج في العالم الذي صنعه المخرج، خاصة إذا كان فلما ناجحا الى درجة أنني احتاج لبضع ثواني حين أخرج من صالة السينما كي أتعود على عالم الواقع، فما بالك بعالم الآخرة التي ليس لها علاقة بعالم اليوم . . سنكون شيئا آخر حينها وبالتالي فأي عدالة نبتغي حين لا يعرف الخصوم بعضهم البعض.

ثم لو أن العدالة الإلهية مخبئة ليوم الدينونة لماذا لم يتوقف البشر عن السعي لتحقيق ما يمكنهم من عدالة في حياتهم الفانية . . ألا يكفيهم تحقيقك لها في

الآخرة؟ يقول أتباعك أنهم إنما يفعلون ما يمكنهم لتحري العدل بينهم كي تستقيم دنياهم ويتركوا ما لا يمكنهم تحقيقه لك لتصفيته في يوم الحساب . . ما أظنهم يقولون ذلك الا عذرا لهم إذا لم يقدروا على تحقيق مالم تحققه أنت لهم، فأنت كالمعذرة بالنسبة لهم يا اله المعتذرين. ربما سنجد البشر في القادم من الزمن يسعون بجدّ أكثر لحل خلافاتهم وتخفّ مظلماتهم بينهم حتى تزول ويحلّ العدل وحينها تنتفي الحاجة الى عدلك المزعوم يا رب في آخرة غيبية . . أهي كالحيلة التي ورثناها في جيناتنا من أسلافنا الأوائل كي نسعى ونتطور في هذا الإتجاه لنحقق العدل للجميع حين نبدأ بتجيير النقص الذي نشاهده في حياتنا وتأجيله الى عدل الهي غير مرئي في حياة أخرى ونسعى لتقليل هذا النقص مع مرور الوقت حتى يقلّ ما نؤجله لك يا رب ونصل لحد الكمال فلا يبقى حينها مظلوما في هذه الدنيا وتصبح الأرض حينئذ هي الجنة المزعومة؟

هل حكمك غير معلّل، بل تفعل ما تشاء وكيف تشاء وقت ما تشاء كما يقول بعض أتباعك أم أن هناك هدفا كما يقول الآخرون، ثم ما الفرق بين هذا وذاك فالناس يتحدثون عن تفصيل التفاصيل عنك وما هو قصدك وماذا تريد وهل هناك علة أو حكمة . . كل هذا وأنت خامل لا ندري ماذا تريد. أندري عنك أكثر مما تدري عن نفسك؟ الحالة التي أستطيع فيها أن أقول أننا ندري عنك أكثر مما تدري عن نفسك هي عندما تكون من صنع بنات أفكارنا . . هل أنت صنيعة لنا أم نحن صنيعتك؟ هل خلقتنا أم نحن الذين خلقناك؟ أتعرف أن مشكلة الإنسان الأولى هي بحثه عن الغائية في كل شيء وعلى رأسها الغاية من وجوده . . بعد ثورة المعرفة وقبل بضع عشرات الالاف من السنين وحين أصبح الإنسان واعيا لنفسه وكأنه كيان خارج عن جسده بمخيلته وذكرياته بدأ يبحث عن الغاية من وجوده. هو لا يجد في هذه الدنيا التي يعي وجوده فقط من خلالها، ما يلبي طموحه الجديد ويواسي آلامه ويغطي النقص الذي يراه بعد أن إرتقى وعيه . . هذه الغائية قد يكون لها أساس علمي في دماغ الإنسان حين محاولته إيجاد شيء من لا شيء كما هو الحال حين يسعى المخ الى إيجاد أنماط ذات معنى في خلفية من الضوضاء مثلما ينظر للقمر مثلا ليرى وجها بينما كل ما

رآه هو مجموعة من النقاط التي قام عقله بالربط بينها لتخلق وجها. . لربما كانت عقولنا أدوات لخلق الأشياء من لا شيء.

أتعرف يا رب أنه ربما لو كتب لحركات التقدم اليساري والقومي في منتصف القرن الفائت أن تبقى وتزدهر في ظل أنظمة سياسية عادلة تهتم بالإنسان أو تستبدل بالتيارات الليبرالية الحديثة أو الوطنية والعلمانية التي تحترم حقوق الإنسان وخياراته وتعلي من قيمة الفرد وتضمن تداول السلطة وانتقالها بشكل سلمي لربما تشكّل دين معتدل شخصي يحافظ على استمرار معتنقيه بلطف ويزيد من قوتهم الذاتية ويكسبهم احترام أنفسهم والآخرين. لكن ظهور ما يسمى بموجة الصحوة وتيارات الإسلام السياسي، بالذات في العقود الأخيرة، يقابلها انكفاء الدين السلفي التقليدي وانفصاله عن العالم زادت من تشابك الدين بالسياسة وهي أحد أسباب موجة الألحاد بك يا رب، فأتباعك من حيث لا يدرون هم سبب في إبتعاد الناس عن دينك وانفضاضهم من حواليك ومحدثك مثال على ذلك. بالنسبة لي وكما أخبرتك سابقا ليس هذا بالضبط هو سبب تركي لدينك يا رب فسلوك أتباعك وأخطائهم يسهل تحميلها عليهم وتنزيه كتابك عنها كما هو الحال في عقول معظم العامة، أما أنا فقد توصلت الى أن الخلل في الدين نفسه وليس في أهله، في النصوص وليس في اللصوص.

أتدري يا رب ما أكبر عائق أراه أمام تطور مجتمعات دولتك وراعية حرمك؟ لا، ليس كتابك أو دينك في حد ذاته بل هو في إعتقاد الناس أن كتابك ودينك هو مخلصهم الوحيد وأنه الحل المثالي لمشكلاتهم في حين أنه هو العقبة التي عليهم أن يتخطّوها، هو المشكل وليس الحل كما يدّعون. كيف تأخذ بيد مريضٍ بعيدا عن الداء وهو يرى فيه الدواء، . . كيف تُقنع طفلا صغيرا بأن الحلوى والسكاكر التي يتناولها ويجد طعم حلاوتها في فمه تضر أسنانه، . . من يصدّق بالطيور التي ترمي الناس بالحجارة وبالقمر الذي انشق فلقتين وبالنار التي كانت بردا وسلاما وبقصص العفاريت من الجن وآصف بن برخيا الذي يقطع الفيافي في طرفة عين إنما هو مثل من يصدق ببابا نويل وهو يجر خلفه غزلانا تطير على

مزلاجته السحرية أو حكايا هاري بوتر. من يصدق بأن كتابك الذي بين أيدينا بقصصه وحكاياه هو مُرسل من عندك يا رب فهو كالطفل الصغير الذي لم يبلغ الحلم بعد أو كالمريض الغائب عن الوعي المنفصل عن العالم، السابح في الأوهام بانتظار من يفيقه من غفلته. ليت شعري، حين يشكوا أحدهم من الأعراض السابقة يا رب يسمى مريضا نفسيا ولكن حين يشكوا منها الملايين تسمى تلك الأعراض دينا!

يتحدث أتباعك عن الإصلاح في مجتمعاتنا والبعض يرى إمكانية حل مشاكله الاقتصادية بل وحتى السياسية لكنى لا أرى ذلك ممكنا بينما المفكرين والمختصين لا يستطيعوا أن يعبروا عن آرائهم بتجرد دون أن يكونوا تحت سطوة الدين ومسايرة أهله. هو كمن يحاول علاج مريض بالمسكنات دون البحث عن أصل المرض بدلا من معالجة العرَض .. لا يمكن أن نتوقع إصلاحا حقيقيا وتطورا نوعيا في مجتمعاتنا قبل أن يسبقها إصلاح ديني وفصل للدين عن الدولة. بقي دينك أربعة عشر قرنا لأن الناس عندنا لم تتعرف بعد على تلك المفاهيم الجديدة التي اخترعتها المجتمعات الكافرة مثل حقوق الإنسان، الحرية، التعددية والديموقراطية، المساواة واحترام القانون، بغض النظر عن الجنس واللون والدين بل وحتى التوجهات الجنسية. أما اليوم فلا أظن دينك سيبقى كما هو .. لا يمكنه أن يتعايش مع تلك المفاهيم بالرغم عن ظهور المعتذرين ومحاولاتهم المستميتة لسد الثغرات التي كشفتها العلوم الحديثة والقيم الجديدة. العلم يسافر بنا الى القمر بينما إذا ركبه الدين فيمكن أن يسافر بنا لنفجر أنفسنا في مباني، .. ما زال هناك اليوم من يتناول الدواء وهو يظن أن المرض هو بسبب المعاصي وأن السرطان هو بسبب الذنوب وليس بسبب الخلايا السرطانية وحين تسأله عن ماهية المعاصي والذنوب تلك، ستجد أن معظمها من مثل مشاهدة امرأة جميلة أو سماع نغمة شجية وليس سرقة مال عام أو فساد إداري.

يخيفني يا رب من يقول أن القتل حرام لمجرد أنك نهيتَ عن ذلك. تصوّر إنسانا يقول لي ما يمنعني عن قتلك هو أنّ هناك كائنا غيبيّا مختبئا في السماء أرسل لي

كتابا قبل عدة قرون ينهاني عن فعل ذلك، بينما آخر يقول أنا أصلاً لا يخطر على بالي أن أضرّك، أو لا أقبل أن أُلحق بك ضررا مثلما لا أقبل أن تلحق بي ضررا أيضا. لا شك أني سأرتاح أكثر في معيشتي مع الثاني لأن حياتي عند الأول هشة ضعيفة وقد تتغير وجهة نظره تجاه قيمة حياتي بناء على تفسيرات مُؤوّليه وشارحي كتابك وفهمهم لمرادك، أما الثاني فهو مقتنع في قرارة نفسه بتلك القاعدة الذهبية التي توصّل لها من دون إيعاز من قوى خارجية غيبية. هل نحن نلتزم بأخلاقنا لأنك أوردت بعضا منها في كتابك يا رب أم لأننا توصلنا إليها بأنفسنا وفهمنا أن هذا هو السلوك القويم الذي يتعايش به البشر المسالمون ويتفق عليه الناس الطبيعيون؟ هل نحتاج الى نص مقدس من السماء لنسعى لتحقيق العدالة ومحاربة الظلم بين الناس وإزالة المعاناة عن الكائنات أم أن هذا هو مما اتفق عليه البشر كي يتعايشوا مع بعضهم في سلام .. أليس هناك من أناس يحيون في تناغم وسلام من دون نصوص مقدسة من عندك، ثم أليس أتباعك اليوم هم أكثر الذين يعانون من تردي أخلاقياتهم بينهم؟

ثم إن هناك من الأخلاقيات في كتابك والممارسات ما يرفضها إنسان هذا العصر ويأنف منها .. انظر الى العبودية والرق وملك اليمين التي أبحتها ولم تجرّمها متماشيا في ذلك مع العصر الذي نُشر فيه كتابك، هي بمعايير اليوم ليست من الأخلاق في شيء. ضرب الأزواج لزوجاتهن والزواج بصغيرات السن منهن ورجم النساء وجلد الرجال وقطع الأيادي هي من أخلاقيات كتابك المقدس بينما هي بمقاييس اليوم إجراما شنيعا بل إن كثيرا من المسلمين أصبح يتوارى عن الحديث في ذلك ويختلق الأعذار لك وبعضهم يرفض تلك الأخلاق والممارسات بالجملة مردّدا أنها نزلت لوقت غير وقتنا والبعض الآخر يصرّ على التمسك بها وتطبيقها كما نزلت في كتابك ليصبح متشددا متطرفا في نظر من حوله والعالم أجمع. شرار الناس هم من يمدون أيديهم لينهالوا ضربا على زوجاتهم الضعيفات حين يغضبون منهن في حين أن أتباعك لا يجدوا غضاضة في أن يضربوا زوجاتهم لأنك شرعت ذلك لهم في كتابك ولا يمنعهم سوى ضمائرهم الحية إن بقي فيها من أخلاق غير تلك التي يستقونها من كتابك. أرأيت يا رب

كيف أن الأشرار بطبعهم يعملون الشر مثلما أن الأخيار بطبعهم يعملون الخير لكن ليعمل الأخيار شرا ويخالفوا طباعهم فهم يحتاجون الى تعليمات عليا . . الى نصوص مقدسة تأمرهم بذلك ، يحتاجون الى دين ، فالدين يأمرك أن تفعل ما يقال لك بغض النظر عن ما هو الصواب في حين أن الأخلاق ترشدك الى فعل الصواب بغض النظر عما يقال لك .

الذي يصدّق بكتاب يحكي عن كائنات خرافية تنتقل بين الأكوان وطيور ترمي الفيلة بحجارة من السماء وقمر ينشق الى نصفين وناقة تخرج من الصخر وعصي تتحول الى ثعابين أو من يتحدث مع الطيور والحيوانات والذي يُحيى الموتى أو يُلقى في نار لتكون بردا عليه . . من يصدق بذلك كله فلم لا يصدق حين يأمره نفس الكتاب بقتل الناس التي تخالف معتقده أو قطع أيديهم ورجمهم واستعبادهم . تقول له أن هناك كائنات غيبية في السماء فيصدق دون دليل ولو قلت له انتبه فالأرض رطبة أو دهان الحائط لم يجف بعد لربما وجدته يحاول لمسه حتى يتأكد بنفسه ويتحققّ . تصور لو أن سلسلة هاري بوتر أصبحت أجزاء مقدسة تتلى من فوق المنابر وتحفظ في الصدور وزعمتْ مؤلفتها أنها من عندك يا رب وصارت دينا يعتنقه طائفة من الناس . . هذا بالضبط هو حالنا اليوم . لتصنع دينا تحتاج الى رجل التبس عليه الحال ، به لوثة أو ربما مرض نفسي يدّعي سماع أصوات غيبية حين يختلي بنفسه ثم تحتاج كاتب ذو خيال جامح يقوم بتفريغ كلام ذاك الرجل في كتاب ثم تحتاج الى سلطة مستفيدة من توظيف هذا الكتاب تفرضه على الناس بالقوة وأخيرا تحتاج الى جموع تسلّم عقولها الى غيرها باسم ذاك الكتاب وزمن كفيل بتحويل تلك الخلطة العجيبة الى تاريخ مقدس .

مشكلة دينك يا رب هي التفكير . . يغفر أتباعك لمن يرتكب المعاصي بظنهم ، لكنهم لا يغفرون لمن يتساءل فضلا عن من يشكّك أو يثير الأسئلة التي تجعل الناس تفكر في دينهم . أحد المحطات التي ساهمت في إفاقتي من الوهم الذي كنت أعيشه هو قراءتي لترجمات آيات القرآن بالإنجليزية . . فصلتْ تلك الترجمات تعلقي بالقرآن وروحانيته والذي أعماني عن رؤية ما تقوله الآيات

حرفيا لأطالعها كما هي على حقيقتها. ربما هذا هو سبب ندرة المسلمين الجدد، لا سيما من الدول التي تعتمد الفكر النقدي حيث أن زيادة أعداد المسلمين إنما هو لزيادة نسلهم وتكاثرهم فيورثّون دينك لأبنائهم مثلما يورثون ممتلكاتهم وأسماء عائلاتهم. أذكر حادثة خسوف للقمر، كنت أطالع وقتها أحد أتباعك في التلفاز وهو يخوّف الناس بك يا رب، ويطلب منهم أن يستغفروك ويخجلوا من أنفسهم ثم يدعوهم لأن يهرعوا للصلاة فهو ذاهب للمسجد الفلاني، من يريد مشاركتنا فليلحق بنا هناك فالحدث عظيم والناس غافلة. بعد دقائق يتصل ذاك الشخص على أحد المراكز الفلكية العلمية ليسأل أحد العلماء هناك متى سيخوّفنا الله ويبدأ الخسوف كي نبدأ الصلاة! الناس يمارسون المنطق والتفكير العقلاني في حياتهم حين يتعلم أحدهم مهارة جديدة، حين يحل معادلة رياضية، حين يحسب كمية المخاطرة في مشروع ما أو حين يحاول إصلاح جهاز ما، لكن فجأة يهجره المنطق ويتركه العقل حين يفكر بالدين. لو قلت لأحد أن فلانا يذهب لغرفة يجلس فيها ولا يتحدث مع أحد بل يخاطب فيها كائن خفي لقال عنه أنه مريض ومع ذلك فالناس عندنا يذهبون جميعا لغرف كبيرة يدعونها مساجد ويتحدثون فيها مع كائن خفي وفي وقت واحد. العلم لا يدعي معرفة كل شيء كالدين، بل يبدأ بإثارة الأسئلة بدلا من عرض الأجوبة ويعترف بالجهل قبل المعرفة ولا يمانع من تعديل الإجابات وتغيير التصورات لتصبح أكثر شمولية وأفضل دقة عندما تظهر أدلة جديدة ومعلومات أحدث. بالعلم نعرف أننا لا نعرف ونحاول أن نعرف ما لا نعرفه، بينما بالدين لا نعرف أننا لا نعرف ولا نحاول أن نعرف فكل شيء قد عرفناه.

الصلاة

عزيزي الله ،

لم أترك صلاة من صلواتك الخمس يوما واحدا في حياتي منذ صغري بل كنت مداوما عليها سفرا وحضرا أؤديها في أوقاتها ولا أتململ من ركوعها وسجودها . . قد يحصلُ أن أنام عن إحداها لكنني أبادر الى قضائها فور تذكرها ونادرا ما يحدث ذلك. لم أكن أجد صعوبة في الإلتزام بمواقيتها وأدائها جماعة في بيتك ، وما أكثر بيوتك في بلدي ، لكن مع الكبر وتقدم العمر أصبحت أصلّيها في بيتي منفردا . لا أظنك تعرف الكبر والتقدم في السن يا رب لأنك لم تجربه من قبل فأنت كما أنت وهكذا كنت . على أية حال ، قيل لنا أنها تساعد في ترتيب الوقت . . ألم يسمع من قال ذلك بشيء اسمه الساعة تحفظ الوقت بدقة أكثر من مواعيد الأذان . وقيل أنها تساهم في تقسيم الأعمال وضبط المشاوير بأوقات محددة عن طريق ربطها بأوقات الصلوات ، يمكنني القول نفسه بالنسبة لأشياء أخرى كثيرة في يومي كالإستيقاظ صباحا والمغادرة للعمل والذهاب الى نادي في أوقات معينة . وقيل أنها تعلّم الإنضباط لكن من ينظر الى رجالك وهم يقفون حول بيوتك لعرف أنهم أبعد ما يكونوا عن ذلك ، وقيل لنا أنها رياضة روحية وما هي برياضة بل إن برنامجا في نادي صحي أتردد عليه مرة واحدة في اليوم وليس خمس مرات هو أفضل منها وأنفع للبدن . لكن الروحانية فيها هي بيت القصيد ، كيف لا وهي وسيلة المناجاة بيننا وبينك . . هي العهد الذي بين أتباعك وبين غيرهم ، هي عمود دينهم وهي ما يبقي أحدهم متعلقا به . يعلّق عليها رجالك طموحهم وآمالهم ويُعلون من شأنها فوق أي شعيرة أخرى لأنها هي ما يشدّ الناس دوما تجاهك ويربطهم بحبل مودتك ويبقيهم في محراب طاعتك بشكل يومي ومتكرر لا سيما وأنها تُؤدّى في العلن كي يزداد التصاق الناس بدينك حين يرون أنفسهم يقومون بها ، يراقبون بعضهم البعض نيابة عنك ليشهدوا المتخلف منهم ويأخذوا على يد المتهاون بها ويغلقوا المتاجر من أجلها ويسوقوا الناس اليها ، بل ويوشكوا أن يشعلوا النار في بيوت من لم يحضر اليها ... فعلا العهد الذي بيننا هو الصلاة .

قيل عن الصلاة إنها وقت مستقطع يصفو فيها القلب ويهدأ فيها الجسم وتحلّق فيها النفس في رحابك . . هي من أعلى أنواع العبادة درجة وأقربها لك لأن بها تواصل مباشر معك يا رب كما أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما يزعم رجالك. لكن ما بال هذا التواصل الذي هيّأ صاحبه ليكون نقيا تقيا صافي السريرة ما يكاد يخرج من بيتك حتى يتغير وينقلب على عقبيه . . أين تلك الروحانية والمعاني الأخلاقية، أهي آنية لحظية في وقت أدائها ببيتك أم متعدّية لأوقات اليوم كله؟ ما بال ذاك الشعور الإنساني بالأخوّة والمساواة بين المصلين ينتهي عند باب بيتك حين يهمّون بالخروج ويلتقون خارجا، ما بال ذلك الإلتزام بموعد الحضور وتوقيته يتيه في أول موعد خارج بيتك . . ما بال ذلك الإنضباط في الصفوف والجلوس أمام محرابك يتدهور حين يهمّ المصلين بالخروج ويستخرجوا نعالهم المتناثرة عند بابك . . بل ما بال نفس أولئك المصلين حين يؤدون نفس الصلاة في دولة الكفر تتغير أخلاقهم هناك حين يغادرون بيتك بشكل مغاير لما هم عليه في دولتك؟ هل يختلف تأثير الصلاة بحسب المكان الذي تُصلى فيه، كيف يا رب يختلف تأثيرها في دولتك عن تلك التي في دولة لا تؤمن بكتابك . . ألا تأمرهم بنفس المعاني وتمدهم بنفس الوصايا؟ هل الأنظمة والتشريعات التي تصنعها المجتمعات الواعية على ضوء التجربة والدليل هي التي تصنع سلوك الناس وتضبطه أفضل من ضبط الدعاء والصلوات؟

أهميتها تنبع من كونها العبادة الوحيدة، هي والدعاء، التي تربط الإنسان بك يا رب بطريقة مباشرة ويظهر فيها ضعف الإنسان وتذلله لك في ركوعه وحين سجوده، يمُرّغ راسه في الأرض مظهرا الخضوع والخنوع في أقصى مراسم الذل والهوان طالبا رضاك عنه حتى ولو لم يقترف شيئا يستوجب الرضا، سائلا عفوك حتى ولو كان طفلا صغيرا، كيف لا وهي مخ العبادة. هي ليست كالزكاة أو الصوم أو الحج فتلك طقوس يستشعر بها مؤديها تفاصيل الدين ومتطلباته ويمكنه أداؤها دون أن يقترب منك يا رب. كما أن ليس فيها مظاهر الخنوع والضعف بل ربما تحمل من مشاعر القوة والسطوة حين تعطي من مالك للآخرين أو تمشي وتتحرك لتطوف ببيتك أو تتوقف عن الأكل لتتغلب على رغباتك. لكن

الدعاء في الصلاة إنما هو إظهار مشاعر الضعف والهوان وليس أي هوان، بل هو هوان مصطنع يتباكى فيه أتباعك ليفوزوا برضاك عنهم. أتقبل يا رب أن يتباكى أحد من أجلك؟.. ما الذي تشعر به وأنت ترى تلك الجموع وقد خرّت رؤوسها للأرض رافعة مؤخراتها وهي تظهر هوانها وضعفها من أجلك؟ أتقبل أن يتملقونك وكأنهم ماسحي الجوخ من أجل كسب رضاك والفوز بنعيمك الذي وعدتهم به؟ أم أن الغاية تبرر الوسيلة عندهم وعندك؟

أصبحت الصلاة عادة كغيرها من العادات المكتسبة لدرجة أنه لا يمكن أن يخطر ببالي أن أتساهل فيها فضلا عن أن أتركها بالمرة. أعرف من إذا تأخر عنها أصابه القلق والوسواس حتى يؤديها وربما وهو ذاهب الى أحد الملاهي الليلية متأبطا ذراع صديقته.. يبتهج أتباعك حين يسمعون بذلك ظنا منهم أن فلانا ما زال يحمل داخله شعلة الإيمان التي لم تنطفئ بعد، بينما الذي لم ينطفئ إنما هو النشاط الآلي الذي تعوّد عليه مرارا وتكرارا لا سيما إذا صاحبه التخويف والتقريع في صغره حتى أصبح كالمريض بالوسواس القهري الذي لا يستطيع الفكاك منه. أظن أحيانا أن من يقرر التوقف عن الصلاة بعد أن تخطى مرحلة الشباب يحتاج الى دواء أو جلسات علاجية كي يتقبل وضعه الجديد. أعرف من قد ربّاه أهله عليها مثل غيره من قرناءه وعنّفوه إذا قصّر في أدائها وكبر وأصبح اليوم بعد أن خرج من الصندوق الذي أسره فيه مجتمعه لا يؤمن بدين ومع ذلك هو يداوم عليها وكأنه لا يستطيع الفكاك منها.. كل الذي تغير أنه أصبح يؤديها جملة، مرة واحدة في اليوم يسردها بدلا من مفرقة على خمس أوقات.. لم يستطع أن يتخلص من إدمانه الذي نشّأه أهله عليه. لكني استطعت يا رب.. استطعت الفكاك منها وأنا في خريف عمري، استطعت الفكاك منها وأنا الذي كنت أظن أنه لن يأتي ذاك اليوم الذي أتوقف فيه عن الوقوف بين يديك لأركع لك وأسجد نحوك إلا إذا فقدت حياتي أو عقلي وها أنذا اليوم قد توقفت وما توقفت حياتي ولا فقدت شيئا من عقلي.. أعرف أن أتباعك سيقولون بل فقدت، لكن دعك عنهم فأنا أخبرُ بنفسي منهم.

لم ألاحظ أي تغيير وأنا الذي كنت أظن أن عقدة الذنب التي زرعها من حولي في عقلي الباطن منذ الصغر ستطاردني لكني لم أحس شيئا من ذلك . . ربما لأنني كنت قد استويت وأصبحت جاهزا لأن أتخلى عن دين أتباعك بعد أن تيقّنت أن الإنسان يولد فيه ولا يختاره، يرثه ويورّثه، وبعد أن عايشت مساوئه وشروره وأزمة هويته التي لا يمكن أن تنسجم مع ظروف زمننا الحاضر فضلا عن مستقبلنا القادم وأخيرا بعد أن عرفت عن نظرية التطور ما لم أعرفه من قبل. بعد هذا كله، كان التوقف عن أداء الصلاة وتركها بالكلية أمرا هيّنا سهلا، بل وطبيعيا ومتوقعا، لا يختلف في ذلك عن من قرر التوقف عن أداء التمارين في النادي الصحي، تعود شابا في الثاني وحكيما في الأول. بعد التوقف عن أدائها أصبحت أقرب للإنسان الحر الكامل وأدنى للفرد المستقل الذي يمتلك مصير نفسه وقرارها ومستقبلها . . أقرر كيف ومتى ومن أريد مناجاته أو الحديث بصمت معه، لينتهي عهد الإستحواذ على العقول والتسلط على النفوس. تخلصت فيها من الخوف المتجذر والذي زرعه أتباعك من عصور الجهل والظلام وانعتقتُ من مشاعر الضعف والهوان وعُقد الذنوب والمعاصي لأعود إنسانا سويا معافى أنظر للآخرين من المصابين بفيروس الدين بشفقة . . فعلا، العهد الذي بيننا هو الصلاة.

بالرغم من أن توقفي عن أداء صلواتك قد حرّرني إلا أنه قيّدني في سجن مجتمع لا يعترف بحق أفراده في اختيار ما يؤمنون به، إذ أني أعيش في بلد راعية دينك . . عانيت كثيرا في كتم ما أعتقده ودينك يا رب كما تعرف ليس مجرد اعتقاد بل هو طقوس تُؤدى وأفعال تُقدّم. لم أنقطع تماما عن ورود بيوتك فصلاة الجمعة الأسبوعية ما زلت أؤديها لتعلقها بآخرين معي تعوّدوا مني الذهاب معهم، إلا أن أحدا من عائلتي الصغيرة والكبيرة لا يعرفوا عني سوى أني أحد من عبادك المؤمنين الموحدين ولا يتوقعوا مني غير ذلك . . الدين يا رب هو نوع من الأمراض بل هو كالوباء الجماعي إذا تفشى يصيب الملايين وأعراضه الظاهرة البينة الصلاة أما الخفية فهي الدعاء. كم أود أن أصرخ معلنا ما أعتقده . . ألم يعلن رسولك كتابك للناس بل وفرضه أتباعك بعد ذلك بالقوة

وإلا فكيف انتشر؟ لم لا تسمح لي يا رب أن أعلن ما أعتقد وبسلام مثل ما فعل رسولك في بداية ظهور دينك، هل كفار قريش أكثر تسامحا منك؟ لن أبشّر بدين جديد ولن أشكّل طائفة حولي نجتمع في دار أحدهم مثلما فعل رسولك ولن أسعى للسيطرة على عقل غيري وتملّكه، بل سأعبّر عن رفضي لما لا يقبله عقلي من دينٍ حولي وحسب . . أتخاف مني يا رب . . أنا المخلوق الضعيف؟

أيهمك يا رب أن تعرف بأي رجل، يمُنى أو يُسرى، أدخل بها الحمام لقضاء حاجتي أو أن أترك بعض الشعر وأزيل آخر من على صفحة وجهي أو أن آكل بيمناي أو يسراي؟ أتشغلك نقاشاتنا عن المرأة . . ماذا تلبس وماذا تغطي وماذا تكشف من وجهها أو كفيها، كيف تلبس عباءتها، أهي على كتفها أم على رأسها؟ أتنصتُ لخطب مريديك يوم الجمعة . . أيعجبك شيء مما يقولون أم أنك مثل الحضور تنتظر الإنتهاء لتسعى في أمر آخر كأن تتأكد من نوع جوربي وأنهما صفيقين لا تبين البشرة من تحتهما حين أمسح عليهما استعدادا للصلاة لك؟ . . أتتابع فتاوى المتحدثين باسمك لتتأكد من مطابقتها لمرادك . . أتغضب حين تكتشف أحدهم يقول عنك ما لا تريد قوله . . أيزعجك حين استمع للحن يطربني أو أنغام تشجيني؟ أنت خالق الأكوان وصانع الأرواح ومدبر الكائنات يشغلك مخلوق ضعيف لا أجد كلمات تصف صغره في المكان والزمان يعيش على أمنا الأرض التي لا تمثل سوى نقطة من ملكوت كونك الفسيح الذي لا أعرف له حدودا ثم تأتي لتنظر بأي يد تناولت بها طعامي أو بأي رجل دخلت بها حمامي أو هل توقفت عن الأكل في شهر من السنة . . أيعقل هذا يا رب؟

تقودني يا رب رجلاي أحيانا لبيتك لا سيما أيام الجمع لأداء الصلاة . . لا يمكنني أن أتخلّف عن ذلك بسبب عائلتي الصغيرة ومجتمعي اللذان تعوّدا ذلك مني. أقف مع غيري اليوم مُكرها كما وقفت لعشرات السنين في بيتك حين لم تفتني صلاة يوما واحدا. كنت في البدء أتمتم بآياتك ثم توقفت تماما وأصبحت أمارس حركات الصلاة كالرجل الآلي أو الروبوت . . أستمع لخطبة صلاتك مرغما. توقفت عن ترديد الأدعية وقول آمين بل إني توقفت عن قول آمين قبل

أن أتخلى عن دينك بوقت طويل، طويل جدا . . لم أستسغ قديما أن أؤمّن وراء الإمام حين يدعو بأصناف من العذاب يصبها على المخالف له. يقف رجلك أمام المأمومين وينظر لهم من علوّ فيما تُطرق رؤوسنا أسفل منه خاضعين ساكتين مذعنين مؤمنين . . كيف لا وهو المتحدث باسم رب العالمين، ثم يبدأ في كيل التهم وقذف عبارات التشفّي ونشر آيات العذاب، يدعو على هذا ويسفّه دين ذاك وينتقص من عقائد الآخرين ويطلب منك أن ترينا فيهم عجائب قدرتك وأن تشلّ أيديهم وأن تجمّد الدم في عروقهم وأن تيتّم أطفالهم وأن ترمّل نسائهم ثم يزعم بأنك رحمن رحيم. من ينظر الينا يشعر وكأننا أحد الملل الباطنية أو من فرق الحشاشين التي يثيرها منظر الدماء ويؤججها وكأننا قنابل موقوتة تم شحنها وتنتظر مخالفا لها لتفجر نفسها فيه . . ثم بعد هذا يتساءل بعض أتباعك كيف يخرج منهم من يقتل نفسه في جمع ليُميت آخرين معه.

ألا يمكن أن يتوجه أحدهم الى بيتك يا رب ليصلي هناك ويقف بين يديك وهو يستمع للحن شاعري جميل أو لموسيقى هادئة تصدح بمشاعر إيجابية تفيض بالحب والسلام بدلا من سماع ملعونين أينما ثقفوا أو عتلٍّ بعد ذلك زنيم أو تبت يدا أبي لهب . . ماذا لو وضعتُ سماعات في أذني والإمام يقرأ لأنصت لسمفونية أو مقطوعة رومانسية بدلا من فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، أو أشنف أذني بسماع صوت فيروز النقي وهي تغني أعطني الناي بدلا من والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما . . أيغضبك ذلك يا رب؟ أتنزعج حين أستمع لإبداعات البشر بدلا من سماع كتابك يتلوه أحدهم في محرابك؟ . . تصوّر أحدهم قضى عمره كله محافظا على صلاتك في بيتك يؤديها مع رجالك بانتظام، لم تفته صلاة واحدة ولم يتخلف عن أدائها جماعة لكنه يستمع وبدون معرفة من حوله الى صوت فيروز الملائكي وهي تسبح في عالم روحاني بدلا من عالم كتابك . . هل ينقص ذلك من أجره شيء يا رب؟ حسنا لنقل أنه لا يحمل أي سماعة في أذنه لكنه لا يطيق بعض اختيارات الإمام في قراءته من كتابك فحين يأتي على آيات العذاب والسب واللعن التي لا تناسب ذائقته المرهفة الحس

يتخيل صاحبنا صوت فيروز ويسبح مع أنغامها في عالمه الخاص بدلا من كلامك . . هو على هذه الحالة في كل صلواته ، أيغضبك أيضا هذا يا رب؟

حسنا لنفرض الآن أن بجانبه آخر لصيق به ولم تفته صلاة مثل صاحبنا لكنه يغرق في سماع كلامك كله ، منصت له بكل حواسه يستشعر آياته كلها وهي تتغلغل في وجدانه بما فيها آياتك عن العذاب والتخويف ونبذ الآخر وقتل المختلفين من غير دينك . يخرج من بيتك وعقله ممتلئ بتلك المشاعر السلبية والأحاسيس العدوانية لينعكس هذا على سلوكه الفظ وتعامله الجاف مع من حوله في بيته وعمله ومجتمعه ، لكنه وللحق يا رب هو مداوم على صلواتك محافظ عليها جماعة مثل صاحبه الآخر ، لكنه يتلذذ بسماع كلامك حين يأتي على ذكر العذاب والشوي في النار والجر بالسلاسل واللعن والقتل والجلد والقطع وكأنه مريض يعاني من اضطراب المازوخية . من منهما يا رب أقرب لك وأعلى منزلة؟ أهو الذي يستمع إلى صوت فيروز ويستمتع بألحانها الشجية وهي تحلّق به في روحانية النغم أم هو الذي يستمع الى آيات العذاب وترتعد فرائصه وهو يتخيل أهوال يوم القيامة والناس تساق الى محشرهم . . وهل تفرقْ معك يا رب؟ كلهم يقوم بأداء حركات الصلاة نفسها من ركوع وقيام وسجود . . لكن أحدهم نفسه رقيقة لطيفة يتمايل طربا وهو يستمتع بألحان فيروز وأخلاقه لينة سمحة والآخر نفسه ترتعد خوفا من خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه وتعشق أذنه سماع آيات العذاب ويستمتع بها . . أي مجتمع ينتج من أفراد كالأول وآخرين كالثاني علما بأنهم كلهم يؤمنون بك ويؤدون نفس الصلاة لكن المحتوى مختلف بعض الشيء؟

أنا والمجتمع

عزيزي الله،

عشت حياتي لم أذق فيها قطرة واحدة من مادة كحولية ولم أمارس الجنس سوى مع زوجتي وملتزم أخلاقياً بحكم فطرتي الذاتية التي تحب الخير للمخلوقات حولي . . لا أقبل الضرر لهم مثلما لا أقبله لي، بل أحسب أني لو اضطررت أن أختار بين أن أَظلم أو أُظلم لاخترت الثاني. كنت أظن أني أمتنع عن ممارسة الجنس مع غير زوجتي بسببك . . لكني اليوم وبعد أن تحرّرت من قبضة رجالك، تغيّرت قناعاتي فأنا مثلا لا أمارس الجنس مع غير زوجتي وفاءا لها وتقديرا لمشاعرها . . أحترمها وأقدّر العقد الذي بيني وبينها فهو عقد أرضي وليس صك من السماء كما يزعمون. لو وافقتْ هي طواعية وباختيارها على أن أمارس الجنس مع غيرها لربما فعلت، . . أقول لربما ومن دون إحساس بالذنب الذي تخلصت من عقدته، فما لك يا رب ولا لرجالك دخل فيما بيني وبين زوجتي. أما امتناعي عن الخمر فلتوقفي عن ذلك في زمن مبكر لكني لن أحس بالذنب لو فعلته . . إحساسي بالذنب يأتي من شعوري بالإضرار بآخر وليس من عقدة يزرعها فيّ آخر عنك.

أقرب ما لي هو دين أبو العلاء . . نبيّه العقل وأقصى اجتهاده أن يظنّ ويحدسا، أما اليقين فلا. أنا واحد من الذين قال فيهم اثنان أهل الأرض عاقل بلا دين له. ديني هو أن أفعل الخير من دون مقابل وغايتي هي أن أعيش حياتي بطولها وعرضها ما دام أن ليس هناك غيرها . . لا أعلق آمالي والامي وأحلامي على حياة غيبية في عالم آخر وراء حُجب لا أجد دليلا عليها بل أحاول أن أصنع من حياتي الفانية أفضل ما أستطيع لي ولغيري وأستغل وقتي القصير في هذه الدنيا من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه وإضافة أقصى ما أستطيع من خير ومعرفة وحب وسلام لأسلمها لمن سيأتي بعدي أفضل مما وجدتها. أستخدم عقلي في ذلك ولا أسمح لأحد أن يستحوذ عليه أو يلوّثه . . أستمتع بما تقدمه لي دنياي من مباهج ومفاتن وأتلذذ بها باعتدال من دون قيود وهمية وعقد يحيكها أهل

الدين، نبراسي في ذلك أخلاقي التي أستقيها من علاقتي بالآخرين وتعايشي المشترك معهم وليس من كائن مختبئ في السماء. أتألم وأفرح، أسعد وأحزن، أرقص وأبكي . . أصلي لمن أشاء وكيفما أشاء وقتما أشاء . . أؤمن أن الموت هو مصير كل حي ونهايته المحتومة وعزائي حين أفقد أحدا من أحبابي أن ليس بأيدينا أن أتينا للدنيا كما ليس بأيدينا أن ننتهي منها أو نتألم أثنائها . . كل ما ليس بيدي حيلة فيه فلست ملوما عليه سواء بفقده أو عدم تغييره، لكن بيدي حق استخدام عقلي في الحكم على الأمور وأن أجدّ وأسعى في تحقيق العدل ورفع الظلم وإزالة المعاناة والألم . . الآن وليس غدا كما يحاول أن يشيع أهل الدين حين يرجئون تسوية المظالم ليوم تشخص فيه الأبصار.

تلك هي الحقيقة المرة التي يخشاها الناس . . من ينشد الحقيقة فعليه أن يقبل بحلوها ومرها أما من ينشد الراحة فليلجأ الى الدين كي يخفف عنه مصائب الدنيا عبر خيالات ووعود تمنّيه بلقاء من فقد وتعوّضه عن النقص الذي يحياه فيسلو على أمل وأوهام، . . هو مثل من يتعاطى مادة مخدرة أو يلجأ للخمر أو الحشيش لينسى آلامه في دنياه ويعيش في عالمٍ من الخيال. كلنا يا رب راضين بحالنا، وهل يسعنا غير ذلك . . أنا أرضى بما أنا فيه مثلما أن المتدين راض بما هو فيه . . هو ينسب رضاه لك ويجيّر ما يصيبه لقضائك وقدرك الذي صنعه غيره وغرسه في عقله ثم استغل ذلك المستفيد من أتباعك الساسة والحكام ليوهموه بأن هناك محكمة أخرى في عالم آخر فيمررون له أنواعا من الظلم والمعاناة يرتكبونها بحقه ويتعايش المسكين معها في دنياه ويُرجئها لعالم غيبي مصطنع حيث تأخذ العدالة مجراها هناك بينما أشعر أنا بالرضا في قرارة نفسي لأني أعي أن ليس بيدي تغيير ما ليس بيدي، لكني أسعى جاهدا لتغيير ما يمكن وإزالة الظلم الذي أقدر عليه . . اليوم وليس غدا في الآخرة. رضاي عن يقين ورضا غيري يسري عليه الشك والريبة . . رضاي قد بلغ منتهاه أما رضا غيري فهو منقوص غير كامل . . هو رضا الضعيف الذي شاهد العنب ولم يطله أو حتى يحاول أن يصله فقال عنه لعله حامض أو لم ينضج. أنا يا رب راض تماما بحالي مثلما أن المتدين راض بحاله، لكني أرفض أن يستغل أحد ضعفي أو فقدي

لأحد أحبتي في رسم صورة متخيلة من عنده لم يقدّم برهانا عليها مثل طفل صغير أخذتَ منه لعبته ثم بدأت في ترضيته بشيء وهمي. إما أن تعطيه شيئا حقيقيا يسلّي نفسه أو دعه يبكي لتغسل الدموع أوجاعه.

عوّدت نفسي عدم التعلق بالأشياء والتعود على مفارقتها والهرب من الركون اليها وترك فسحة بيني وبين الناس أخلو فيها بنفسي مهما طال العهد بهم ولو كانوا من الأهل والأحباب والأصدقاء لأني على يقين من مفارقتهم، لعل هذا يخفف عني مصاب فقدان من أحببت، ويجعلني أحرص أن لا أُضيع أي فرصة أحياها معهم. أما الأشياء فهي تملكني بقدر ما أملكها فإن تعودت على فقدها ولو هي قابعة في حسابي البنكي لما راعني تفلّتها من بين يدي. عزائي أن ليس بيدي أن أتيت فلم أختار من أكون وكيف سأكون والى ماذا أنا كائن، فنحن الأحياء محكومون بالبيولوجيا .. من يؤمن ومن لا يؤمن، أتباعك ومخالفيهم، كلهم تسري عليهم قوانين الحياة والممات. يختلفون بينهم في ما يتخيلونه من أفكار مجردة وغيبيات افتراضية صنعوها في عقولهم لكنهم يشتركون في سجن الحياة الواقعية وأتون عالم الشهادة الذي لا ينفك منه أحد. كلهم مربوط بحبل الحياة، تُطبق عليهم مشاعرهم في شكلها البدائي الخام وفوق هذا تترسب طبقات عليا من البيئة والثقافة المحلية واللغة والدين والمجتمع تسيّرهم كلٌّ حسب موقعه في هذا العالم. يشتركون في الطبقة السفلى من البيولوجيا التي أنتجتهم ويختلفون في الطبقات العليا من بنائهم الفكري الذي أنتجوه .. هم متشابهون في ما ليس بيدهم شأن به، مختلفون فيما يملكون صنعه وتغييره.

يرفع أحدهم يديه ليناجيك ويحدثك، يُدلي لك بمكنون قلبه ليبقى معك على اتصال دائم وهو يسألك متى يا رب .. متى تحقق لي أمنيتي، متى تشفـــــــي مريضي، متى تُزيل همي .. متى تستجيب دعائي .. لو قال أحد أتباعك هذا الكلام لما استنكر أحد عليه ذلك ولما احتج أو اعترض. لكنه لو استبدل كفيه المرفوعتين نحوك بهاتفه الجوال وأعاد نفس الكلام معك وهو يتحدث في جواله لقامت القيامة عليه ورُمي بالزندقة والهرطقة والخروج من الملة .. ما الفرق يا

رب بين الحالتين مع أن الفعل واحد والكلام واحد؟ في الأولى هو طبيعي وفي الثانية هو مريض، في الأولى هو مؤمن صالح وفي الثانية هو زنديق ضال . . هل لأنه في الأولى يتواصل معك من طرف واحد فقط بدعاء أو صلاة أو مناجاة أما الثانية فتستدعي طرفين اثنين . . تستدعي تواصلك أنت أيضا معه مثلما هو معك. يستنكر الناس ذلك ويغضبون لو إدّعى أحدهم أنك تتواصل معه وتتحدثان سويا بل الويل له وكأنهم لا يريدون لك أن تظهر لأحد منهم . . هم يريدونك أن تبقى مختفيا عن الأنظار، منزويا مختبئا لا يبرز منك أي مظهر ولا تتواصل مع أي أحد سوى لقائك الأول القديم مع رسولك الذي بعثت معه بكتابك، أما غيره وبعده فلا. ألهذا السبب أنت مختفي . . لأن أتباعك يريدون ذلك لك ويخشون لو ظهرتَ وأزحتَ الستار عن طلعتك، لبانَ لهم شيئا لا يريدونه؟ أنت هكذا بالنسبة لنا كمن يتحدث في هاتفه مع طرف آخر وهاتفه مقطوع عن الخدمة، وهو يعرف أنه مقطوع عن الخدمة، ويريده أن يبقى مقطوعا عن الخدمة . . ومع ذلك يأمل أن يسمع الطرف الآخر كلامه.

أنا اليوم مثل رسولك في بداية ظهور دينك حين كان يختبئ عن الناس قبل أربعة عشر قرنا، بل إن وضعَ رسولك وحالته الاجتماعية أفضل مني فاختباءه المؤقت إنما هو لرسالة صادمة يريد البوح بها لغيره ودعوة ينوي أن يصدح بها بينما ليس لدي شيء أُخفيه أو رسالة أدعوا لها أو دعوة أنوي نشرها ومع ذلك فأنا مختبئ مثله. ذنبي أنني لا أريد أن أشارك الناس حولي إيمانهم بشيء غيبي رسخَ في رؤوسهم بينما رسولك كان يريد من الناس حوله أن يؤمنوا بشيء غيبي رسخَ في رأسه هو فقط. قل لي الآن يا رب من أكثر خطرا على من حوله . . رسولك الذي ادّعى أنه يتواصل معك في السماء وأن معه كتاب منك قام بداية بنشره سلما ثم فرضه بالقوة لاحقا، أم أنا الذي اكتشف عقلي أن ما يؤمن به غيري من خوارق لا يتفق مع منطقي فامتنعت عن الإيمان بها؟ قل لي بربك يا رب، ودع عنك التباس عبارتي السابقة التي تقولّك باسم من هو ربك فقد اعتدنا هذا النوع من العبارات بيننا . . قل لي، هل أنا أكثر خطرا وتهديدا للسلم الاجتماعي على من حولي حين أتوقف عن تصديق ما لا يقبله عقلي أم رسولك حين بدأ بنشر

فكرة خارجة عن المعهود الذي تعوّده الناس وأدخل شيئا غيبيا في رؤوسهم من دون دليل أو برهان سوى كلام يرويه هو عنك ويزعم أنه قرآنا من عندك؟ قل لي من أكثر تسامحا وتقبلا للآخر، أهم كفار قريش الذين سفّه رسولك آلهتهم وألّب ضعفائهم عليهم وجمع الناس حواليه، أم رجالك وأتباعك اليوم حين يدرون عني؟ من أكثر تعايشا مع الآخر، ، أهوَ أبو جهل وأبو لهب في علاقتهم برسولك الذي كفرَ بآلهتهم ولعن رجالاتهم أم أتباعك اليوم معي، أنا الذي اقترفت خطيئة رفضي لما يرفضه عقلي وما يحاول أن يلزمني به المؤمنون من أتباعك المحيطين بي؟ أليس وضعي اليوم بعد أربعة عشر قرنا من نشر كتابك أسوأ من وضع رسولك وهو مختبئ في دار الأرقم؟

لا تخش مني ومن أمثالي شيئا يا رب . . فأعداد المؤمنين بك في تزايد. هم يفرحون ببعضهم البعض أكثر مما يفرح الملحدون بنظرائهم لأن المؤمنين يحتاجون دوما لمن يؤكد لهم حالة الوهم التي يعيشونها كي يطمئنوا الى وضعهم وإلى الشعور بالإنتماء الى طائفة الغارقين في الأوهام والخيال. ألا ترى الى كمّ التعابير العفوية المستقاة من عندك ولك والتي يستخدمها المؤمن في يومه كي يربط بها غيره معه في دوامة الوهم التي نسجها حوله كي لا يفلت منها أحد . . يسبّح بك حين يرى جديدا ويبارك حين يسمع خبرا جميلا ويحوقل حين يتلقف خبرا سيئا ويشمّت حين يسمع عطسا ويدندن بورد حين يصبح ويمسي وحين يدخل منزلا أو يركب سيارة بل ويتلفظ بكلام من عندك حين يريد أن ينام مع زوجته أو ربما صديقته بل إني أعرف من لا يؤمن بك ويمارس ذلك لا شعوريا بعد أن تعود عليه. أما من لا يؤمن بك يا رب فليس بحاجة الى من يعزز لديه ذلك الإقتناع الذي توصّل له بنفسه أو يؤيده فيه أو يوافقه عليه . . هو ليس بحاجة الى نسج شبكة من الأوهام ليقع فيها غيره ولا ليوحي لنفسه بما ليس فيه ولا ليكسب مؤيدين لفكرته كي يطمئن لها ويرتاح. يكفيه ما هداه اليه عقله بنفسه الخالصة من دون تأثير ورهبة وخوف من الآخرين وما توصل اليه بعد شك طويل وتردد . . لعله هو المؤمن الحق يا رب!

أشاهد بعضا ممن يشكك في دينك بل ويسخر منه مثلما يسخر أتباعك من الديانات التي تختلف عنهم، لكن مشاهدتي لما يقوله الذي يشكك في دينك لا يعزز من قناعاتي أو يدعمها أو يؤكدها ولا يجعلني أطمئن أكثر لما أعتقد . . قد أفرح لهم وأسعد بأنهم ينطقون بما يؤمنون به حقا دون خوف من أحد ويمثّلون وجها حرا من المجتمع يندر مشاهدته كما أضحك من حديثهم عن دينك لكني أضحك أكثر من حديث أتباعك عن أديان الآخرين. أتدري يا رب أن أكثر البرامج كوميدية هي برامج الفتاوى التي يصدرها رجالك الأوفياء وأحرص كثيرا على مشاهدتها . . هي ضرب من الكوميديا السوداء وأظنها أحد الأسباب التي جعلتني أعيد النظر في دينك قبل أن أتعرّف على نظرية التطور. بل إن من المفارقات أن مِن أتباعك من يسخر من برامج الفتاوى إذا صدرت من رجل لا ينتسب لمدرستهم . . هي كوميديا إذا كان المتصدر لها ليس محسوبا عليهم ودينا اذا كان صاحبها من طرفهم.

مشكلتي مع دينك يا رب هو أنه مؤسسة رسمية وليس شيئا فرديا . . هل كنت تقصد ذلك يا رب؟ أعرف أن أتباعك يقولون عنك إن حياتي ومماتي لله . . حسنا ليكن ذلك، لكن ما دخلي أنا في طريقة حياة فلان ومماته التي نذرها لتكون لكائن غيبي، لمَ يُلزمني بأن أقلّده في ذلك وأن أعيش حياتي مثلما يعيشها هو؟ ألا يمكن أن يكون دينك في محيط الفرد الشخصي؟ في نسخته المكية بدى كتابك وكأنه يتحدث لقارئه كفرد مستقل، منفصل عن مجتمعه لكن حين ظهر في نسخته المدنية بعد أن قويت شوكة أتباعه وزاد معتنقيه وكثرت موارده صار يتحدث للقارئ الذي يعيش داخل مؤسسة حاكمة يسيطر عليها أتباعك . . يقيس له علاقاته ويضبط له حركاته ويقرر له كيف يأكل وكيف يلبس وكيف يعيش. هناك من يتحدثون باسمك في كل شأن من شؤون الحياة والناس تصغي لهم، فهم الموقعون عنك وباسمك حتى حين يريد أحدهم أن يفصّل ثوبا يُطلّ عليه أحد أتباعك ليقرر كم سنتيمترا يترك فوق كعب رجليه وإلا صار لابسه في النار . . في المجتمعات التي انعتقت من تلك المعضلة ووعت خطرها، أبقتْ على الدين في محيط الفرد الشخصي، مثله في ذلك مثل لونه المفضل أو ناديه الذي

يتابعه، وأحاطت أذرعة الدين بسياج لا يتعداه عن معبدك فلا يستمد الكاهن أي سطوة خارج جدران الكنيسة. حين تقرر تلك المجتمعات أمرا تلجأ للعقل والمنطق والعلم القائم على الدليل والبرهان والتجربة ولا تسمح لأحد مهما ارتدى من لبوس الدين أن يخلط معتقداته الغيبية بأمورهم المعيشية فضلا عن أن يلزمهم بها.

لو أفصحت عن رفضي لما يعتقده غيري مما لا يقبله عقلي من أمور الغيب كأنْ لوْ توقفت عن التصديق بكائنات غير مرئية تطير في السماء وتراقب من في الأرض لتسجل عليهم أعمالهم ويسميها أتباعك ملائكة أو كائنات تعيش تحت الأرض وفي الخراب يدعونها بالجن وتتلبّس بالبشر أو أن القمر الذي نراه قد انشق فلقتين قبل قرون قليلة، لو أفصحت عن رفضي لمثل ذلك لطلقت مني زوجتي وتبرأت مني عائلتي ولفُصلت من عملي ولتشوّهت سمعتي ولوحقت من قبل أتباعك، . . وبعد هذا كله يأتي أحدهم ليقرأ من كتابك لكم دينكم ولي دين! ثم لو قدموني للمحاكمة في دولة خادمة بيتك لفقدت حياتي إذ سيقرر القاضي إعدامي بحكم الردة الذي جاء به رسولك وفي أفضل الأحوال سأقبع في السجن سنين حتى ينساني المجتمع أو ربما يثير أحدهم قضيتي لتصل الى جماعات لا تدين بدينك وتهتم بالإنسان وكرامته لتضغط على دولة دينك كي تُفرج عني أو تُبقي على حياتي التي هي في نظر أتباعك خطر يتهدد دينهم الهش. كل هذا لأني لم أقتنع بفكرة غيبية تعيش في رأس أحدهم، وفي المقابل لو عبّرت عن عدم تصديقي بأن الأرض تدور أو أن الأرض مسطحة وليست كروية لما اهتم أحد بي ولما ألقى لي بالا بل لربما احتفى بعض أتباعك بي ورفعوني منزلة. نكراني للحقيقة لا يغيّر شيئا منها لكن نكراني لفكرة غيبية يغيّر كل شيء بالنسبة لأتباعك . . هو يشوّش على الواهمين المتعلقين بها ويُذكي شعلة التفكير في عقل المفكر والمشكك والمتعطش للحقيقة. أي دين ذاك الذي يحكم بقطع رقبتك لو أنكرت ملائكةً تطير في الهواء أو جنّا يعيش في الأرض أو انشقاق قمر في السماء ويدعك لو صدّقت خبر بابا نويل وهو يجر مزلاجته في الهواء أو أن أشباحا

وعفاريت تعيش في الأرض أو ثور يحمل الأرض فوق قرنيه؟ . . إنه دينك يا رب.

مرّ علي زمن في صغري كنت أتشوّق فيه للعودة الى زمن رسولك حين نشر كتابك لأول مرة كي أستمتع بصحبته والنيل من عطائه والتعرف على أصحابه وأكثرُ ما كنت أحس ذلك حين أخرج من درس يلقيه أحد أتباعك المخلصين بعد أن يرسم لنا لوحة عجن ألوانها بروحانية ذاك الزمن وأزال منها الشوائب وما علق بها من منغصات وشبهات كتلك الصور التي نراها اليوم معلقة في المتاحف ونحن مندهشين من جمالها. كبرتُ بعدها وكبرتْ معي التساؤلات بعد أن قرأت ووعيت واستقليت وصرت أتمنى العودة لزمن رسولك، لا لأمتع عيني بالنظر اليه، بل لأتيقن من صدقه وادعائه وهل تلك الصورة التي رسمها أتباعك في ذهني هي أقرب للصور الفوتوغرافية التي تعكس الحقيقة أم هي لوحة زيتية صنعتها أياديهم بألوان عجنوها في خلطة منقّحة مختارة مُصفّاة من روى فلان عن علان. أما اليوم فأصبحت لا أحتاج الى العودة الى الوراء لأتيقن من صدق العصر الأول الذي انتشر فيه كتابك، تيقنت الآن كم كنت ساذجا وأنْ لا داع لذلك فالصورة غدت واضحة جلية بالنسبة لي ولا تستحق شوق السفر عبر الزمن. يكفي أن أتخيل رسولك يظهر اليوم ومعه كتابك يُبشر به بعد أن نزعتُ عنه كل الرواسب التي زرعها أتباعك في عقلي وأزلت عنه كل القداسة التي غلفوا رأسي بها. يكفي أن أتخيل كتابك بتجرد كأي كتاب آخر وهو يُطبع اليوم لأول مرة فأشتريه من أحد المكتبات أو أحمله عن طريق الإنترنت لأحدد موقفي منه ومما يحتويه من سطور الأحكام والحدود والعقوبات وأحوال الجنة والنار وأهوال يوم القيامة والبعث وقصص الأولين ورده على المخالفين . . أحسب أن أي أحد يستطيع القيام بتلك التجربة الفكرية لو تخلص من الخوف المترسب في أعماقه وكسر حاجز الوهم الذي نسجه حوله أتباعك.

كم هو مُحبط أن تعيش بين أناسٍ تصطنع العيش مع أوهامهم وتخشى أن تعلن عن رفضك لما لا يقبله عقلك مما يؤمنون به من أمور غيبية والأدهى والأمر هو أن

تخضع لتدخّل تلك الغيبيات في شؤون حياتك كلها من دون نقاش أو حتى تساؤل وإلا وصَموك بالخيانة والردة. توقفت عن أداء الصلاة في بيتي وأنا اليوم أنتظر ردة فعل زوجتي المحافظة على دينك كغيرها من بنات أتباعك . . هي تداوم على إيقاظ أبنائي من أجلك وتدعوهم للصلاة من أجلك. تلتقي عيناي بعينيها حين يرفع مؤذنك نداء الصلاة . . لست أدري ما الذي سأفعله لو سألتني علامك لا تصلي، وبأي طريقة سأجاوب وعن أي حل سأبحث بعد أن كانت تراني لعشرات السنين مداوما على السجود لك وقراءة آياتك ومد يدي نحوك؟ أتحسبها يا رب ستطلب مني الطلاق وكلانا نحب بعض، هي تعرف من دينها أن العهد الذي بيننا هو الصلاة فمن تركها فقد كفر بما جاء به أتباعك . . أتراها تحبك أكثر مني يا رب؟ لا يخيفني ذلك بقدر ما يخيفني فقدانها للأمل المزعوم الذي زرعه في عقلها أتباعك منذ صغرها . . هي ما فتئت تتحدث عن أن الوعد هناك بدارك الآخرة وتُمنّي نفسها بذلك لا سيما حين ترى حلماً في دنياها لم يتحقق أو حقا لم يسترد.

تحررتُ من نسيج الوهم الذي أحاطني به دين أتباعك دون أن أثير الشكوك حولي إذ لم يتغير شيء في طبيعة معاملتي تجاه زوجتي وأبنائي سوى أن زاد حرصي على أن أوفر لهم أفضل ما أستطيع وأقضي معهم أسعد ما يمكنني توفيره من وقت فليس لي فرصة أكثر يقيناً من هذي التي أعيشها الآن وأعرفها حق المعرفة لكني لست أدري كيف ستتصرف زوجتي لو عرفت ذلك عني. هي لا تبدو جاهزة بعد للإستيقاظ من الوهم الذي تعيشه مع أتباعك . . كم أشفق عليها يا رب حين أتخيلها وهي تعرف ما أعرفه عن نفسي. أظن أحيانا أنها تشك في حالي لا سيما وهي ترى منى جانبا إنسانيا مرهفا يطغى على آرائي وينتقد كثيرا موقف الدين المتشدد وليس أهله فقط ويثير أسئلة عن الحسد والعين وتلبّس الجن بالأنس وباقي الأمور التي تتمسك بها حرفيا. ربما هي لا تسألني عن سبب توقفي عن الصلاة لك كما اعتدت حتى لا تفتح بابا في مهب الريح يصعب إغلاقه وتفضّل أن يكون ذلك كسلا مني. لكن في نفس الوقت، أظن أنها تعرف أن الكسل أيضا سبب غير وجيه لا سيما لمن كان في ماضي أيامه مخلصا في

طاعتك . . آه، لو عرفتْ ما أعتقده، لربما تكدّر خاطرها وهي تحسب أن مصيري سيكون في جحيمك حسب تصورها بينما هي تسعى وتكد من أجل جنتك. لا يمكن أن أتخيل زوجتي تتخلى عن إيمانها العميق بك بعد كل هذه السنين، ولا ولن أطلب منها ذلك . . كل ما أرجوه هو أن ترضى بما أرضاه لنفسي إذا عرفت ما أعرفه، لكن كيف وهذا سيكون سببا لمعاناتها . . كم يمزّق قلبي وأنا أتخيلها تفكر في مصيري ومصيرها بعد فراق دنيانا وبعد تلك السنين التي عشناها سويا. أرأيت يا رب كيف أن فكرة غيبية تفرّق بين الأحياء وتزرع الشقاء بينهم . . ألا يكفيهم عناء الدنيا التي يحيونها؟

ألا يمكن يا رب أن نعيش كزوجين سعيدين كما كنا من قبل؟ هل اعتناق أحدهم دينك يستلزم مقاطعة صاحبه الذي لا يؤمن بدينك وهل يكون دينك سببا للفرقة بين المرء وزوجه وأحبائه؟ أليس هناك من ذهبَ أكثر من ذلك ووصل به الحال الى أن قتل من قتل من أهله وإخوانه وآبائه بسبب دينك الذي ارتضيته لعبادك؟ ينقل أتباعك أن هناك من أصحاب رسولك المقربين من قتل أبوه لأنه لا يؤمن بدينك ويجلّون ذلك الفعل الذي في نظرهم هو أعلى قيم البراء من الكفر وأهله وأسمى آيات الولاء والمحبة التي يدعو لها دينك حين يأمر أتباعه بأن تكون محبتهم لرجل عاش قبل أربعة عشر قرنا أكثر من محبتهم لأهليهم وحتى أنفسهم. أيرضيك يا رب أن يقتل أحدا أباه بسببك؟ أتقبل أن يلتقي إبن بأبيه في ساحة القتال ثم يضرب أحدهما عنق الآخر لأن أحدهما يعتنق دينا غير الآخر؟ أي جنون هذا، بل أي جنون يعتري الإنسان حين يعتقد أن هذا هو دين منزل من عندك؟ اليوم نرى من يفعل شيئا من ذلك في دولة الخلافة المزعومة بل وحتى في دولة خادمة دينك لكن لا يجرؤ أتباعك على تبرير فعلهم كما فعل السابقون بل يتم تجريمهم والأخذ على يديهم. كيف تريد مني يا رب أن أحب رجلا لم أقابله ولا أعرفه ولم يسبق لي ان التقيته، عاش قبل الف وأربعمائة عام تقريبا ولا تربطني به أي صلة . . تريد مني أن أحبه أكثر من أمي وأبي وابني وابنتي وزوجتي بل ونفسي كي أثبت لك أني مؤمن بدينك؟ أفهم تعلق بعض الناس ببعض الشخصيات سواء التاريخية منها أو المعاصرة وإعجابهم بصفات من

يتابعون لكن أن يُطلب من أحد أن يحب شخصا أكثر من أهله ونفسه كي يثبت تعلقه بما يقوله ذاك الشخص بغض النظر عما يقول حتى ولو كان لا يقبله العقل والمنطق . . لهو مثال على الهوس والمرض.

عزيزي الله ،

تابعت كتابات الفلاسفة والمنطقيين عنك باللغتين التي أجيدهما وقرأت عنك الكثير مما كتبه أتباعك وما خطّه مريديك وناكريك على السواء وسمعت الكثير من مثل هل تستطيع أن تصنع صخرة لا تستطيع حملها أو مكانا لا يسعك ويحويك حتى ضعف نظري وكلّ جسدي من كثرة المطالعة . . بحثت عنك في كتابات الكاتبين وفي أقوال المتحدثين وفي أشعار المتصوفين وفي أنّات المعذبين وفي آهات المحبين وتوصلت الى أن رغبة الإنسان في أن يكون الشيء حقيقي لا يجعل منه حقيقة سوى في عقل صاحبه ، وأن الكثير لا يريد معرفة الحقيقة لأنه لا يريد لأوهامه أن تزول . الناس يخافون منك يا رب لكنهم يخافون من عدم وجودك أكثر . . هم يطأطؤون رؤوسهم لك خشية من كاميرات المراقبة التي سلّطتها عليهم ولا يريدون لها أن تنطفئ وإلا لتخيّلوا أنفسهم وقد تحولوا الى وحوش كاسرة . هو نوع بدائي من عملية الرصد والضبط يحكم تصرفاتهم حين غادروا كهوفهم لأول مرة ليستقروا في مستوطناتهم الأولى . أليس من يفعل الخير اليوم من دون تخويف أو انتظار مكافأة أكثر نبلا وإنسانية من أولئك الذين يستشعرون كاميرات المراقبة وهي ترصدهم في تحركاتهم وسكناتهم؟

عزيزي الله ،

لست أدري عنك لكني سعدت بالحديث معك . . وللوقت الذي استقطعته من جدولك الإلهي المشغول والمليء بالمهام العظيمة لتمنحني أنا المخلوق الضعيف هذه الفرصة القصيرة لأردّ على كتابك الذي بعثت به لنا قبل أربعة عشر قرنا . . أرجو أن يكون هذا الشعور متبادلا ، وأن لا ينقطع التواصل بيننا . لا أفهم ما تكون يا رب ولا يخيفني ذلك كما أنه لا يفرحني . . كنت أود أن أعرف عنك أكثر لكنك لم تمنحني تلك الفرصة ولم تزح اللثام عن وجودك . الشيء الأكيد الذي أعتقده من دون أدنى شك وريبة هو أن الديانات إنما هي من صنع البشر ، لا

دخل لك بها يا رب، لا من قريب ولا من بعيد . . وكل الكتب التي يقال عنها سماوية هي أرضية ولا يمكن أن تكون الا من صنع البشر . . أما أنت فأمر آخر، لا أعرف ما تكون. أعرف أنك اله الفراغات والمتناقضات، اله المستضعفين والمعتذرين وشماعة يعلق عليها الناس مآلاتهم وأحلامهم ورغباتهم وفي النهاية أنت خامل، لم تتدخل يوما في مساعدة الخلق بل تركتهم يعانون من تعب الدنيا وهم يظنون بك ظن الخير.

قد أغير رأيي يوما عنك . . قد أؤمن بك أو لا أؤمن . . قد أصدق أن هناك قوى خفية خارج هذا العالم أو لا أصدق . . قد يتبين لي شيئا عنك لم أتبينه من قبل . . قد أفهم شيئا عن عالمنا يلقي الضوء على من تكون أو من لا تكون، لست أدري . . لكن الأكيد عندي أن الأديان ليست من عندك. إن نفيي لمبدأ أن الدين من عندك ورفضي لفكرة النبوة والوحي وأن هناك بشرا اصطفيتهم في زمن قديم ليتواصلوا معك لا يعني عدم الإيمان بك أو الكفر بوجودك . . فهناك من هو مؤمن قبل ظهور الأديان أصلا كما أن هناك من هو مؤمن اليوم وهو بلا دين. إنْ ظنّ أحدهم أن هناك الها فسيكون وإن ظنّ أن ليس هناك إلها فلن يكون، فنحن لا نرى العالم كما هو بل كما نحن، . . لكن ما دخلي أنا بذلك كله؟

هذا جزء من ما أردت قوله لك يا رب وهناك جزء آخر لم أقله لكنك تعرفه . . ألست تعلم ما تخفي الأنفس وما تضمر الصدور؟

ملحق

الآن وبعد أن فرغتَ من قراءة كتابي "عزيزي الله" ، اسمح لي عزيزي المسلم أن أخاطبكَ هنا بحديث خاص لك ، أبعثه بمشاعر صادقة من القلب الى عقلك البريء . أرجو أن يتّسعَ صدرك لما سأقوله وتذكّر أني لن أطلبَ منك أن تتنازل عن رأيك فضلاً عن أن تُغيّر من مُعتقدك ، على خلاف ما صنعَ نبيك حين طلب من قومه في مكة أن يغيروا معتقدهم وقاتلهم على ذلك ، فدينك وما تعتقد هو شأن خاص بك ، لا ينبغي لغيرك أن يفرضه عليك مثلما أنه لا ينبغي لك أن تفرضه على غيرك .

جغرافيا الدين

عزيزي المسلم ،

اختر مكانا هادئا في منزلك تختلي فيه مع نفسك التي بين جنبيك لا يقاطعك فيه أحد . إدعكْ عينيك بلطف ثم اغمضهما لوهلة وخذ نفساً عميقا ، اتبعه بزفير تنفث معه كل المشاعر المسبقة والمواقف المحدّدة والظروف المحتّمة والقوالب المعلّبة لتسبح في فضاء رحب تطلق فيه لعقلك العنان بدون قيد أو شرط . تخيل نفسك الآن وقد ولدت في الصين أو البرازيل مثلا أو ربما الدانمارك ونشأتَ في إحدى هذه الدول وترعرعت فيها لأبوين من أهل ذاك البلد حتى سن البلوغ . تُرى كيف سيكون معتقدك وإيمانك؟ ما الأمور التي ستكون من الثوابت والمسلّمات لديك ، إن كان لديك شيء من ذلك؟ ما المقدّس عندك حينها وما المدنّس ، ما المباح وما المحظور ، ما الحرام وما الحلال في اعتقادك؟ منْ منَ الأسماء والشخوص التي حين يأتي ذكرها على سمعك ترنُو اليها بشغفٍ وتُقبل عليها بلهف ، تصلي وتسلم عليها؟ ما الكتاب والآيات والروايات التي حين تقرأها وتتمتم بها

ستجعلك تخشع وتطأطئ عنقك رغبة ورهبة؟ بالتأكيد لن تكون اقرأ باسم ربك الذي خلق أو تبّت يدا أبي لهب أو إذا الشمس كوّرت، بل ستكون شيئا آخر. شيئا لا علاقة له بالمقدس الذي هو عندك الآن. الأحرى أنه شيء من واقع البيئة التي وُلدت فيها والمحيط الذي تنتمي له. ستكون كتبا فُصّلت آياتها وأُمليت سطورها حسب المكان الذي وُلدت فيه والبيت الذي ترعرعت تحت سقفه والمجتمع الذي نشأت به. قد تحملُ صحفاً تحوي كلمات منزّهة وسطور مقدسة تُرددها طلبا للمثوبة وأملا في الخلاص وطمعا في الغفران، لكن لن يكون فيها قل أعوذ برب الناس أو قل يا أيها الكافرون . . بل قلْ شيئا آخر.

حينها لن تكون شخوصك التي تهفو لها محمد وعلي وعمر وحسين وبقية الصحب بل ربما جون وكريشنا أو أناندا أو الحواريين. لن يكون القرآن كتابك ولا مرجعك الذي تستقي منه بوصلة أخلاقك وطريقة معاشك بل ربما الإنجيل أو العهد القديم أو الفيدا، ولن تكون سيرة ابن هشام ولا أحاديث البخاري أو روايات مسلم هي مصدرك لقصص شخصياتك العظيمة بل ربما أحاديث الداماباد أو إنجيل متّى. لو ولدت في الصين لربما وجدت نفسك اليوم تلثم أرجل تمثال لبوذا بدلا من أن تقبّل الحجر الأسود، ولو ولدت في اليونان لربما وجدت نفسكً تزحف على ركبتيك للوصول الى الأيقونة المقدسة في جزيرة تينوس بدلا من أن تلفّ حول الكعبة سبع مرات مرتديا خرقة بيضاء طلبا للمثوبة والأجر، ولو ولدت على أطراف نهر الغانج لوجدت نفسك تغسل خطاياك في مائه بدلا من أن تغرف من مياه زمزم الذي هو لما شرب له، ولو ولدت في أمريتسار لتركت شعرك مسترسلا ولما أخذت منه بدلا من قصه أو تقصيره إذا حللت من عمرة، ولو ولدت في روما لوجدت نفسك تصلي مع المؤمنين في عيد الفصح خلف قداسة البابا بدلا من فضيلة إمام الحرم الشريف. ألا يحق لك أن تتساءل بعد ذلك كله، ماذا لوْ لمْ تحمل بك أمك في هذه البقعة من الأرض وتضعك فيها؟

أتُراك تحمد ربك عزيزي المسلم أن وُلدت في بلاد المسلمين وكفى بها من نعمة عظيمة ان اختارك الرب في عليائه لتكون من نسل أبوين مسلمين في أرض يُرفع فيها الأذان، وتشكر خالقك أن جعلَ مسقط رأسك بين أهل التوحيد الخالص والدين الحق كما يقال لك وتردّد مع القوم أنِ الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. ألا تتساءل ولو لمرّة، ماذا لو لمْ يكن مسقط رأسك في هذا المكان؟ ماذا لو أنك خرجت الى الوجود في الركن الآخر من البقعة التي ولدت فيها؟ ما الذي يجعل ذلك من عقيدتك وجوهر دينك؟ ألم يخطر ببالك أنّ ما تؤمن به اليوم إنما هو نتاج جغرافيا مولدك. أتترك الصدفة الجغرافية البحتة تحُدّد دينك ومعتقدك بعد أن حدّدت هويتك وجيناتك. هل دينك مثل جيناتك أو لون عيناك، تُولد بها وترثها من والديك وأجدادك؟ حسناً.. إن لم يكن دينك موروثا، هل كان هناك نقطة في خط الزمن، ولتكنْ حين بلوغك مثلا أو أي وقت آخر تختاره، توقفت فيها لمساءلة نفسك ومراجعة ما هو معروض عليك في سوق المعتقدات وما هو مطروح في بازار المذاهب والأديان ومقارنة ذلك وتحليله ومراجعته ثم أعلنتَ بعدها دخولك في دين الإسلام؟ أتذكرُ وقتا محددا أو يوماً معينا أو تاريخا بذاته التقطتَ فيه أنفاسك ثم قررت فيه دخول دينك بعد أن اطّلعت أنت بنفسك على قوانينه مثلما تطّلع على قوانين جمعية ما، وتدرسها وتقرر الالتحاق بها من عدمه؟ هل مرّ عليك يوم راجعت فيه ما تعرفه عن دينك وأهله ورجاله وقوانينه وشرائعه ورواياته وتاريخه وعرضته على عقلك الناقد الفاحص ثم قررت بعد ذلك كله الانضمام اليه؟ أم أنه حالٌ أقلّ ما يقال عنها أنك وجدتَ نفسك فيها من غير اختيار منك، سنين وأعوام عشتها بالتدرّج بين المساجد والمدارس والبيوت وأوقات قضيتها مع رفاقك وقرنائك تُردد فيها ما يُقال لك وتلقّن ذلك لغيرك ممن سيأتي بعدك، كيف لا، وكل ما حولك ينتسب لهذا المعتقد ويشرب من مائه ويتنفس هواءه وينهل من مصادره وينضح من معينه.

تخيّل الآن أحد الشيوخ الذين تعرفهم جيدا وتأخذ عنهم وقد تسمع لحديثهم وتثق بهم وربما تتعلق بهم وترنو لهم.. تخيل ابن باز أو ابن عثيمين أو ابن عبد

الوهاب أو شلتوت أو ابن باديس أو أي أحد من رجال دينك الذين تعرفهم قد وُلد في مانشستر أو ربما طوكيو مثلا ، لكان نصرانيا من طائفة البروتستانت في الأولى أو من الشنتو في الثانية . تخيل لوهلة أخاً توأما للشيخ ابن باز ، تم خطفه يوم ولادته من الرياض وإرساله الى إحدى المدن بالشمال الإنجليزي ليتربى هناك ويعيش ، لربما أصبحَ راهبا في كنيسة مُعلقا الصليب في عنقه وهو يقوم بتعميد المؤمنين وتغميسهم في الماء المقدس لمجرد أنه نشأ في نيوكاسل بينما أخوه الشيخ يجلس للإفتاء والدعوة والإرشاد في الرياض ويجيب على أسئلة المستفتين في برنامج نور على الدرب . أخطرَ ببالك أنك ترث دين آبائك وتولد فيه من غير رأي منك أو اختيار وأنك قد تقضي بقية حياتك تدافع وتنافح بل وقد تقتُل وتُقتل وأنت تذبّ عن وتناضل من أجل معتقد لم تختره بنفسك . ألا يكفي أن تدعَ أول دقائق من عمرك تحدّد اسمك وهويتك ومن تكون لتقرر لك أيضا دينك ومعتقدك وما تكون؟ من تكون ، إنما هو احتمال تحدده الجغرافيا لا دخل لك به ولكن ما تكون هو أمر تحدّده أنت بنفسك ، إن أردت ، فما المقدس سوى حالة جغرافية يشترك فيها كثير من البشر حسب موضع ولادتهم . أتدري أنه حتى الاسم والهوية ، والجنس أيضا ، أصبح بالإمكان اليوم تحـــــــــديثهم وتغييرهم والإعلان عن ذلك بل وستجد من يقدم لك الدعم ويساندك في ذلك لو أردت ، بينما لو فكرت بتغيير دينك ومعتقدك وأعلنت ذلك لتعرضت للقتل في أسوأ الأحوال أو الهجر والنفي في أفضل الحال .

أتخشى أن تطلق العنان لعقلك فتتساءل ماذا لو ولدتُ في غير مكاني ونشأت في غير بيتي وعشت في غير بلدي ، كيف سيصير حالي وما هو معتقدي وديني . أتراك الآن تشك فيما أقول فتفكر أم أنك تشك فتسترجع وتستغفر؟ هل جربت مرة التفكير في أمور تفعلها دون تروّ ومشاعر تتدفق دون تمحيص واعتقادات تتلبسك دون مراجعة . . لا أقصد مجرد الخواطر التي تعنّ لك ثم قد تطردها على أنها من وسوسة الشيطان بل أن تُعمل فكرك بعمق وتسترسل دون حواجز في محاولة فهم ما يدور بخلدك . قد يبدو الأمر مخيفا حين تبدأ وبالتأكيد هو ليس بالشيء الهين ، إذ يتطلب منك شجاعة حقيقية لمواجهة ذاتك فضلا عن

القدرة الفكرية التي لا أخالك تفتقدها والرغبة الجادة بالمعرفة والسعي المجرد من الأفكار المسبقة لاسيما حين يتعلق الأمر بمسلّمات ورثتها عزيزي المسلم ونشأت عليها ولُقّنت بها . هل انعدام الحريات في مجتمعك سببٌ لقبولك باعتناق ما يعتنقه الآخرون دون فحص منك ومراجعة؟ هل تُحاصرك المرويات والنقول، تلك التي تدعوك الى السير مع القطيع خلف الراعي فما أنت الا من الرعية ويد الله مع الجماعة ومن شذّ شذّ في النار . لن أطلب منك عزيزي المسلم أن تصبح كصفحة جديدة كيوم ولدتك أمك فقد فاتَ أوان ذلك ، إذ أنّ صفحتك قد تلطّخت بما يصعب محوه منها ، لكن حاول أن تخفّف الحكم قليلا فما أظنُّ الاعتداد بالرأي إلا من تلك النقول . تنفس من هواء حاضرك النقي الذي لم تلوّثه بعدْ نقولات وشروح الماضي واستمع لصوتك الداخلي ، ذاك الذي عاش زمن الدهشة صغيرا قبل أن تعلوه رتابة التلقين لعلك تستيقظ لوهلة ثم قرر بعدها إن أردت ، العودة لماكنت فيه .

تبادل الخرافة

شاهدت قبل مدة في قناة الناشونال جيوغرافيك فيلما وثائقيا غريبا عن إحدى القبائل النائية والتي تعيش في وسط أدغال افريقيا . لا أذكرُ بالضبط أين يقيمون فقد مرّ على مشاهدتي لهذا الفلم سنوات ، ولكنّ الذي أذكره جيدا أنهم كانوا منعزلين في منطقة بعيدة عن الحضارة تقع جنوب الصحراء الكبرى من جهة الغرب ، ربما في ناميبيا . قصتهم عجيبة وطريقة حياتهم غريبة ، دعني أحكي لك شطراً منها مازلت أذكره جيدا ولا أستطيع محوه عن مخيلتي . يعيش أفراد تلك القبيلة في جماعات صغيرة وفقا لطقوسهم البدائية ولغتهم الخاصة بهم معتمدين في معيشتهم على الصيد وتربية المواشي ، أما لباسهم فلا يكاد يستر شيئا من أجسامهم ولكنّ شيئا عنهم ما زال عالقا في ذاكرتي . أذكر أنه في وسط القرية غرفة متوسطة الارتفاع تحيط بها السلالم من جهتين وعلى كل من أقبل نحوها أن يصعد أحد السلالم من جهة ويفترش سطح ذلك المبنى مدة يسيرة يتمتم فيها

ببعض الكلام ويقبّل أثنائها حجرا موضوعا بعناية في زاوية من سطح تلك الغرفة ثم ينزل منها الى الجهة الأخرى ويكمل مسيره الى جدار منتصب حاملا معه بعض قشور الموز التي تشتهر في تلك المنطقة ثم يرمي بها الجدار حتى تتجمع قشور الموز أسفل ذلك الجدار مكونة جبلا صغيرا من قشور الموز التي تُرمى. الأغرب من ذلك، أنه في وقت محدد من اليوم، يعلنه ساحر القبيلة، يمتنع أفراد تلك القبيلة عن تناول أي مأكول أو مشروب، حتى الماء غير مسموح لهم بتذوقه بالرغم من شدة حرارة الجو عندهم والويل ثم الويل لمن يتجرأ فيكسر تلك الطقوس ويأكل شيئا أو يشرب قطرة من الماء. شاهدت ذلك وتعجبت من تلك الطقوس الغريبة.

أتدهشك عزيزي المسلم طقوس تلك القبيلة البدائية في أفريقيا حين تسمع بها أو تقرأ عنها وهل ترى فيها شيئا غريبا خارجا عن المألوف مما تعوّده الناس وألفوه؟ غرفة يصعدون فوقها ليقبّلون سطحها وجدارا يرمونه بقشور الموز ووقت من اليوم يتوقفون فيه عن الأكل والشرب!! ألا يذكّرك ذلك بشيء تفعله أنت أحيانا من دون تفكير وتراه عاديا دون أن تتعجب منه أو تتساءل؟ ألا تتوقف مثلهم عن الأكل والشرب في وقت معلوم وتسمي ذلك صوما؟ ألا تدور حول غرفة وتقبّل جانبا منها بدلا من سطحها ثم ترمي جدارا بحصى بدلا من قشور الموز التي يرميها أولئك وتسمي ذلك حجّاً مبرورا! قد تتوقف الآن فجأة لتبحث على عجل عن تفسيرات تعلّل لنفسك وتبرّر لها ما تفعل وكيف أن ما تمارسه أنت يختلف في الجوهر والمضمون عما تفعله تلك القبائل البدائية وإن تشابه في الشكل والهيئة، إذ لا يمكن أن تكون طقوسك أنت المسلم النقي التقي ابن هذه الأرض الطيبة مثل تلك الأفعال التي يمارسها أولئك القوم البدائيون في تلك الأدغال . . أتظنُّ ذلك فعلا؟ أتظن أن هناك اختلافا في المضمون والجوهر ولو تشابه الشكل والمظهر؟ أنت لوحدك الآن مع نفسك ولستَ محتاجا لتبرّر ذلك الاختلاف لأحد. ما الذي حدث للتوّ؟ قد سمحت لعقلك أن يعيش حياة طبيعية لوهلة قصيرة، ربما بضع ثوان حين تعجّبت من صنيع أولئك واندهشت من عملهم ثم ما لبث تفكيرك المتسائل وعقلك الناقد الفاحص أن خفتَ وبهتْ ثم عاد لوضعه

السابق الذي ألف وتعوّد عليه ليظنّ أن العجيب والغريب إنما هو عند أولئك والطبيعي والمعتاد هو عندك، بينما الطبيعي حقا هو تساؤلك المنطقي عن الفعل الذي أثار دهشتك بغض النظر عمّن يمارسه.

حسنا، سأعترف لك أني لم أشاهد ذاك الفيلم عن تلك القبيلة بالذات وإن كان ذلك وارداً، إلا أني أشاهد يوميا فيلماً لا يختلف عنه كثيرا سوى في التفاصيل يحدث بين المسلمين. أردت عزيزي المسلم أن تخوض معي هذه التجربة الفكرية لترى بنفسك أنّ كثيرا مما تفعل وتمارس باسم الدين والمعتقد وتحت بند التراث والعادات إنما هي أشياء ورثتها عمن سبقك، لا دخل لك بها ولولا المكان الذي نشئت به وترعرعت لما تلبّستها ولبستك. وجدتَ مَنْ حواليك يعتنقها منذ صغرك فآمنتَ بها وأيقنتَ دون فحص ونقد. فكّر معي قليلا، هل تذكر كتابا واحدا في صفوف المدرسة التي تعلمت بها أو حتى صفحة من كتاب أو سطورا من صفحة أو ربما مقالة - غير ما تقرأه الآن- وهل حضرت خطبة أو درسا أو شاهدت برنامجا أو فيلما مصوّرا أو تسجيلا مسموعا مرّ عليك قبل ظهور الإنترنت رأيت فيه أو سمعت منه أو قرأت فيه كلاما يثير تساؤلا، مجرّد تساؤل، حول مصادر دينك أو محتواه أو نبيّه أو أصحابه فضلا عن أن يشكّك به أو يوجّه انتقادا لآياته وما جاء فيها أو طريقة تسجيلها ونقلها أو يضع فحواها وما جاء من معجزاتها تحت المجهر ليفكّكها بعين الفاحص الساعي للحقيقة؟ كل أولئك الذين تدعوهم بالعلماء وطلبة العلم والباحثين والمشايخ ورجال الدين إنما هم مروّجين لفكرة مسبقة وُلدوا فوجدوا أنفسهم مسوّقين لها، لم ولن يفحصوها بعين الباحث المتجرد إذ لا يمكن أن يخلعوا عن أنفسهم عباءة التقديس التي خاطها لهم مجتمعهم، حتى لو أرادوا ذلك.

قد تكتفي الآن بالجواب المعلّب السهل أن افعل ولا تسلْ لأن أحدا قبلك قد فعلها. ألم يفعلها نبيك وأصحابه ورجالات دينه ومن جاء بعدهم حتى زمنك هذا وأمروك بها؟ ألا تجدُ هذا سببا كافيا لتفعل ما يُقال لك ويسعك ما وسعهم؟

إن كان جوابك نعم . . إفعل ولا تسلْ، قُلْ ولا تفكر، فكن مستعدا لأن تقضي بقية عمرك وأنت تعتقد بأنك تدافع عن أفكارك بينما في الواقع أنت تدافع عن أفكار غيرك التي زرعوها فيك. إن لمْ ترَ بأساً في ذلك ولا مانعا من أن تردّد أفكار غيرك دون أن تعرضها على عقلك، فاعلم أن من يستطيع حملك على أن تعتقد بالمعجزات والكرامات دون دليل قادر على أن يحملك على ارتكاب الفظائع والمآسي دون دليل أيضا وهنا مكمن الخطر، ولا تنسَ أن الخرافة عندك هي دين عند غيرك، مثلما أن الدين عندك هو خرافة عند غيرك. إذعانك للسائد من القول والفكر وتصورك أنّ تلك المرجعية المتدثرة بغطاء القداسة هي أعرف منك وأفهم، وتكيّفك مع كل ما يأتي منها من خطأ وصواب، روايات وخزعبلات هو مما يعرف اليوم بالتوسل بالمرجعية التي يرى البعض أنها إحدى صور المغالطات المنطقية كما أنها على طرف نقيض من المعرفة العلمية التي تناقش بحرية وتتساءل بعقلانية وتعترض على ما لاً يقبله المنطق السليم.

تجربة فكرية

عزيزي المسلم،

لنجرب سويا هذه التجربة الفكرية البسيطة . . لو قيل لك أنّ بوذا قبل قرون عديدة استيقظ ذات ليلة من مرقده وأعدّ راحلته، بغلاً أو جملا أو ربما حمارا، ثم ركبها لتسير به قليلا في الصحراء وما لبث بعدها أن همزها بطرف كاحله لتقفز به من الأرض وتطير به في الهواء تسابق الريح ليقطع بها الاف الأميال في ساعة أو ساعتين أو أكثر أو أقل قليلا، ثم أكمل رحلته في عنان السماء ولكن هذه المرة ليصعد بها الى الفضاء الخارجي، خارج كوكب الأرض وهبط أخيرا بعد أن أخذ جولة سريعة في سديم المجهول وعاد الى فراشه قبل ظهور الفجر بقليل ليلتحف غطائه ويكمل نومه بعد رحلة فانتازية بين الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وعبر الغبار الكوني على ظهر حمار أو دابة. ما هو موقفك حين تسمع هذه القصة؟ أتصدق بها مثل ما يصدق الصغار برحلات بابا نويل الى

القطب الشمالي على مزلاجه التي تجرها الإيل ليحضر لهم الهدايا أو القصص التي تروى لهم قبل النوم أو تلك التي تخوّفهم من فئة العفاريت ، أم أنك تضعها في مكانها اللائق بها بين قصص الأساطير والخيال ، تحُكى وتقصّ للتسلية والمتعة؟ حسنا ، لنستبدل الآن اسم بوذا بمحمد ونعيد رواية نفس القصة كما هي . كيف سيبدو حكمك الآن؟ ما الذي حدث وتغير ، ما الذي اختلف وتبدّل . والقصة هيَ هيَ نفسها لم تتغير؟ لنفترض مرة أخرى أن رجلا مثل كونفوشيوس سأله قومه قبل الفين وخمسمائة سنة أن يريهم آية ، فأراهم الشمس في السماء وقد انفصلت الى فلقتين ، نعمْ ، الشمس التي تشكّلت قبل بضع مليارات من السنين ، انفصلت قبل ألف أو الفين عام الى نصفين وكل قطعة في جهة مقابلة للأخرى حتى شاهد أتباع كونفوشيوس رؤوس الشجر والجبل بينهما لساعة أو ساعتين ثم التحمت مجددا والتصقت وعاد كل شي لحاله . أتصدّق بهكذا حدث؟ حسنا ماذا لو غيرنا اسم كونفوشيوس الى محمد وبدلنا الشمس بالقمر وغيرنا شذرات كونفوشيوس وكتبه بالقران ومحاوراته مع مريديه باقتربت الساعة وانشق القمر . . كيف سيبدو حكمك الآن؟

حين تغيّرَ اسم راوي القصة من بوذا أو كونفوشيوس الى محمد ، تغيّر معها فجأة طريقة تفكيرك ووزنك للأمور وحكمك على الأحداث وتعاطيك مع الأحوال وكأن شيئا ما قد انطفأ في قدراتك العقلية أو تم حجبه خلف موروثات عشّشت في تلافيف دماغك ! ألا يثير ذلك لديك أدنى تساؤل عن كيف ترفضُ شيئا بسبب تصادمه مع عقلك الطبيعي ومنطقك السليم ، لكن في اللحظة التي يرد فيها اسم نبيك قبلها يتحول اللامعقول الى معقول والخارق للعادة الى ما جرت به العادة والقصص الخيالية الى حقائق ربانية والمرويات الصبيانية الى جمل ونصوص عظيمة . . ثم تستتر خلف المعجزات . أذكر في طفولتي من حكايا الجدات التي ترويها لنا قصص الحيوانات ومنها تلك البقرة التي ضحكت حين تحدثت مع صاحبها فتعجبْ عقولنا الصغيرة الغضة آنذاك وتندهش ، ثم كبرنا على تلك القصص وكبرت معنا عقولنا ونمى وعينا وعرفنا أنّ تلك الحكايات إنما هي للصبية تُسلّيهم قبل نومهم . لكن حين يروي تلك القصص أبو هريرة بدلا من

الجدة نقلا عن نبيك محمد من أنّ بقرة كلّمت صاحبها بعد أن تعب فركبها إذ قالت له إنما خُلقنا للحرث ولم نُخلق لهذا . . حينها تصبح قصة موثوقة مُستيقنة ومُصدقة لا تقبل الشك ، كيف لا وقد وردت في البخاري ، أصحّ الكتب بعد القرآن ! أي شخص ذاك الذي تسمح له بأن يؤثر في قدرتك العقلية للحكم على أبسط الأمور سوى نبي أو رسول من عند الله وهو محمد عندك أو ربما بوذا أو كونفوشيوس عند غيرك ، وهم كلهم سيان ، لا فرق بين هذا وأولئك ، سوى في الجغرافيا التي وضعتك هنا ووضعت غيرك هناك خلف سور الصين العظيم .

لو قلت لأحدهم أن بوذا صعد الى السماء لربما ضحك مما تقول ، لكن لو استبدلت بوذا ب "محمد" لهلّل وكبّر ! أحسبك تقول الآن أنّ تلك الأحداث التي لم أصدّق بها ابتداء قبل أن يأتي ذكر محمد قبلها إنما قد أتى بها القرآن ، وهي فعلا كذلك ، لكن أليس لبوذا وكونفوشيوس وغيرهم كتبهم المقدسة أيضا عند أتباعهم وبها قصص تتقاطع مع ما في كتابك عزيزي المسلم؟ كيف إذن أصبحت تلك الخوارق للطبيعة معجزات عندك أنت ، فقط لأنها وردت في كتابك المقدس بينما هي أساطير وخرافات إذا وردت في كتب غيرك؟ تصدّق بما يرفض العقل تصديقه لأنه صدر من بيئتك وكُتب بلغتك وتناقله من حولك وآمن به أسلافك بينما ترفض تصديق ما يرفضه عقلك حين يصبح المعجز من خارج موطنك وبغير لغتك ! لعلك تقول ولكني قد سلّمت أمري لنبيي فهو الهادي ويكفيني من العقل أن عرّفني صدق نبيي ثم يُخلي بيني وبينه ، فمتى ما قبلت به وصدّقته ابتداءً فأنا قابل ومصدّق بكل ما سيأتي به لاحقا . حسناً ، متى سلّمت أمرك لنبيك وقبلت به ابتداءً؟ وهل سلّمته بنفسك أم أن أحدا قبلك قد سلّم أمره له وأنت بالتالي تتّبع من قبلك؟ ثم منذ متى عرفت صدق نبيك وتيقّنته؟ أتذكرُ وقتا محددا لذلك التسليم؟ أم هو أمرٌ وجدت نفسك فيه ، نشأت عليه وتربيت بين جنباته ، على فترة من الزمن؟ دعني أسألك مرة أخرى : ولمَ لمْ تُسلّم أمرك لبوذا؟ هل استخدمت عقلك في الحكم عليه وعلى كونفوشيوس وعلى محمد وبقية أصحاب الديانات والعقائد ثم اخترت من ذلك كله نبيك وانتقيت منه

كتابك المقدس بعد بحث وتمحيص ومقارنة؟ أليس الجواب الواضح وضوح الشمس أنّ انقيادك لنبيك، غالبا إنما هو لأنك وُلدتَ في هذه البقعة من الأرض؟ وأن ما تؤمن به اليوم من غيبيات ومرويات إنما هو تحصيل حاصل؟ وأن ما تعتقده مقدسا إنما هو نتيجة طبيعية لمكان نشأتك وتربية أهلك وبيئتك ومجتمعك الذي تتفاعل معه؟

أليس من دينك أنه ما من مولود إلا ويولد على الفطرة وأن الأصل في كل مولود أنه يولد مسلما وأن أبواه هم اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّساه، ما بال أولئك الذين يعيشون في مجتمعات حرة لم يُفرض عليهم اعتناق يهودية أو نصرانية أو مجوسية، ما بالهم لا يختارون الإسلام دينا لهم إن كان هو الفطرة التي ولدوا عليها؟ بل ما بال المسلمين أنفسهم يحتاجون الى دعاة في المساجد وخطباء على المنابر يصدحون ليلا ونهارا لحث الناس على التمسك بدينهم إن كانوا مفطورين على ذلك؟ أليس من الظلم والإجحاف غرس معتقدات غيبية وطقوس مقدسة وآيات يختلط فيها الرعب بالفانتازيا في عقول غضّة صغيرة لأطفال أبرياء وإجبارهم على اعتناقها وتصديقها وتلقينهم إياها وترديدهم لها ليلاً ونهارا؟ لنتخيل معاً طفلا وُلد في أحد حواري مدينة الرياض (السويدي أو منفوحة مثلا) وتصادف أنّ أهله يشجعون ناديا معينا وليكن النصر مثلا. كل ما في البيت من ألوان وشعارات تُشير الى هذا النادي وكل صور الشخصيات المعلقة هي للاعبي هذا النادي ورموزه من هدّافين ونجوم. تمّ فرض حُبّ مؤسس النادي وكل ما يتعلق به من شخوص وأماكن ومباريات على ذلك الطفل الصغير وتلقينه شعارات النادي وأناشيده وترديد أهازيجه والتعلق به والتغني بماضيه وإخفاء هزائمه ومحو إخفاقاته والويل كل الويل لو تساهل في ذلك. لم يكتفِ أهله بذلك بل تمّ تلقينه أن حب أي ناد آخر هو من الهرطقة، خاصة النادي المنافس (الهلال في هذه الحالة) والويل كلٍ الويل لو شعر بميول للهلال أو أظهر تعاطفا معه أو أبدى اعجابه به. أماّ لو قرر أنه لا يحب الكرة من الأساس وليس له أي ميول رياضية فتلك ردة عقوبتها الموت. ما تقول في ذلك، أليس هذا هو الجنون بعينه؟ لاحظ أن ما نتكلم عنه هنا إنما هي أشياء مادية محسوسة يراها الصغير

بعينيه ويلمسها بيديه بل ويلعبها برجله فما بالك إذا كانت أشياء مجرّدة وأمور غيبية زُرعت في عقله وسُكبت في وعيه على فترة من الزمن؟

ثقافة القطيع

يؤسفني أن أخبرك عزيزي أنه أنت وأنا ومعظم من يقرأ هذه الأسطر هم مسلمين بالوراثة، نعم . . بالوراثة شئت ذلك أم أبيت. لا ينبغي أن يكون وقع ذلك مفاجئا عليك فكلنا مسلمين بالورْث. ورثنا هذا الدين ولم نعتنقه اختيارا أو نقبله ابتداءً، مثلما أن أبا لهب ورث ما يعتنقه من أبويه ومن أسلافه فأنت وأنا ورثنا ما نعتنقه اليوم من آباءنا وأسلافنا. ليس هناك من جديد أو مفاجئ في ذلك القول، بل المفاجئ أن تعتقد غير ذلك. أتفهّم عزيزي سبب انقيادك لغيرك، إذ ليس من الهينّ أن تتوقف عن اتّباع الآخرين، ليس فقط لأن الآخر قد يلزمك باتباعه ويفرض عليك ذلك ويشدّك اليه شدّاً بل لأنك تشعر بالأمان وتحس بنوع من الألفة والطمأنينة حين تنتمي الى مجتمع أو طائفة ما، يؤمن أفرادها بنفس المعتقد ويتلبّسون نفس الأفكار ويرددون نفس الأذان. شعورك مثل شعور مشجع نادي النصر حين يجلس في الملعب مع مشجعين آخرين ينتمون لناديه ويرددون نفس الأهازيج. أتظن من السهل عليه أن يهتف لنادي الهلال وهو في مدرجات النصر؟ هذا الشعور بالانتماء نستطيع تتبعه الى مجموعات الإنسان البدائي الذي عاش على الصيد قبل اكتشاف الزراعة وظهور التجمعات البشرية حين كان التعاون والانتماء الى المجموع سببا للبقاء على قيد الحياة والخروج وحيدا للصيد مخاطرة لا تحمد عقباها. يحتاج كل منا الى الشعور بالانتماء فدوافع ذلك تبدو موروثة منذ الإنسان الأول وهذا قد يفسر عدم تساؤلك عن ما تعتقد وفحص ما تؤمن به، فرغبتك في السلامة والعيش مع القطيع والإحساس بالأمان أقوى وآكد وأسلم من العيش وحيدا بأفكارك التي ترهقك والتي لا تدري من يشاركك بها، لاسيما إذا أُلقي في روعك أن يد الله مع الجماعة ومن شذّ شذّ في النار.

يأتي دينك بعد ذلك ليؤكد على ما ورثته في حمضك النووي بأن تبقى مرتبطا بمن حولك مهادناً لهم ومُطاوعاً لما ترى وتسمع فما أنت سوى فرد من رعيّة وهناك دائما من يرعاك سواءً أبا أو زوجا أو حاكما . يدعوك تراثك الديني الى الإذعان والخضوع الى المجموع والتماهي معهم والاستكانة لهم ويكفيك ما يكفيهم من معتقدات ورؤى وأفكار حتى وإن جانبتْ تلك المعتقدات في نظرك المعقول وخرجتْ في بالك عن المألوف وعارضتْ لديك المنطق ، وإيّاك إيّاك أن تسمح لنفسك بالاستفسار وإثارة السؤال فآخر ما يريده منك هو التساؤل "إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم" . أول ما يطلبه منك دينك هو الاستسلام ثم الانقياد (الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة) حتى تعيش في مجتمع كل أفراده مستسلمين منقادين مطيعين ، يقودهم قلّة نصبوا أنفسهم متحدثين باسم كائن غيبي وموقّعين عنه . تُقبّل حجرا لأن غيرك قبّله وترمي آخر بحصيّات لأن من قبلك فعل ذلك وتنضم الى الألوف في الدوران حول غرفة مجوفة لأنهم فعلوا ذلك وتتبرّك بماء مقدس لأن غيرك صنع ذلك ، ثم تشاهد هندوسا يغمسون رؤوسهم في نهر الغانج العظيم فتتعجب من صنيعهم وقد تضحك من فعلهم مردّدا هذا ما وجدوا عليه آبائهم . قد تقف الآن وتقول إني أفعل تلك الأمور التي تبدوا غريبة لغيري لأن ربي أمرني بها . حسنا ، متى وأين وكيف كان هذا؟ دعني أعرض عليك الإجابة باختصار وعارية كما هي بدون رتوش ، اجابة لن تجدها في كل كتب الدين وتفسيراته . في عصور مظلمة قديمة ، وقبل أكثر من ألف وأربعمائة عام ، عاش رجل في هذه البقعة من الأرض إدّعى أنه يتواصل مع إله في السماء ، ثم بدأ في الحديث بكلام غريب ملحون نسبه لربه المزعوم ، فيه أنواع من التخويف والترهيب وبعض الترغيب باستخدام الجنس والنساء والملذات الحسية . فرض كتابه على قومه ثم عندما مات إختلف من أتى بعده ومازالوا مختلفين الى اليوم حول فهم ما قال في ذلك الكتاب ، لكنهم اتفقوا على فرض أفكاره بالقوة كما فهموها هم . تلك هي الحكاية باختصار ، آه . . نسيت أن أضيف أنّ من أفكاره لكم دينكم ولي دين .

لا أريد أن أثقل عليك لكن ما أشرت اليه آنفا حول الشعور بالانتماء هو إحساس فطري قوي متجذر ويصعب ممانعته أو الانعتاق منه ولا تحسبني أدعو لذلك أو أشجع عليه. بل العكس، فإن ذلك الشعور إنما هو مصدر قوة وإلهام للمجتمعات البشرية ويتولّد منه الانخراط في التعاون نحو المنفعة المشتركة ولولاه لما استطاع الإنسان أن يبني الحضارات ويمتاز عن باقي المخلوقات، فالبشر وإن ولدوا منفردين إلا أنهم يعيشون جماعات. فقط أريد أن تفهم عزيزي أن موقفك المتصلّب تجاه ما تقرأ وتسمع وترى مما يخالف السائد في محيط مجموعتك هو أمر طبيعي بل وفي أحيان كثيرة هو من غريزة حب البقاء التي ورثناها في جيناتنا من أسلافنا. جرّب أن تفصح عن رأي متسامح مع الشيعة في مجلسٍ بالرياض مثلا ويكون حضوره ممن نشأ في أحضان السلفية الوهابية وكتب ابن تيمية أو تبدى رأياً في السعودية عن خلافها الحالي مع قطر أو حربها في اليمن مختلفا عن الرأي السائد والذي هو بالطبع رأي الحكومة. لا تستطيع فعل ذلك بسهولـــــــــــة واطمئنان لأن شعور الانتماء لديك والموصول برغبتك في البقاء والأمان يطغى على شخصية الفرد داخلك. الاستثناء الوحيد الذي أعرفه هو عند توفر سقف عالي من الحرية في مجتمعك يسمح لك بالتعبير عن رأيك دون أن يتعارض ذلك مع شعورك بالانتماء. وحتى ذلك قد لا يكفي، إذ يصدّق الناس وبسهولـــــــــــة مختلف الأكاذيب لتفادي الاختلاف مع المجموع المحيط بهم وهناك تجارب كثيرة عن ثقافة القطيع تلك، ولعل من أشهرها تجارب عالم النفس آش والتي تُري وبوضوح كيف أن الفرد موضع الاختبار يمكن أن يقوم بأفعال غير منطقية، فقط لأن جميع من حوله يفعل ذلك.

أنت حبيسٌ لما زُرع فيك منذ طفولتك وأسيرُ أفكار غيرك قبل أن تكون أسيراً لأفكارك، وحريّ بك أن تفحص تلك القناعات والأفكار جيدا وأن تُعيد مراجعتها كل فترة وتكونَ مستعدا للتخلي عنها وتركها أو تعديلها وتنقيحها أو استبدالها وقبول غيرها متى ما اتّضح لك عوارها وبان لك نقصانها، فالخطأ الأكبر هو أن تبقى كما أنت، والأسوأ أن يكون هذا الأنت إنما هو الغير وصورة طبق الأصل له، تمّ زرعها بك قبل أن تبلغَ الحلم وتشبّ عن الطوق فتعيش حياة

غيرك وأنت تظنها حياتك وتتحدث بلسان الآخرين وأنت تظنه لسانك وتدافع عن أقوال غيرك وأنت تظنها أقوالك وتؤمن بما يؤمن به الآخرين وأنت تظنه إيمانك. أتقبل أن تعيش هكذا حياة؟ نسخة لغيرك وصورة طبق الأصل لأفراد مجتمعك، يختفي الفرد داخلك وتروّض الأنا بين جنبيك وتُكبح النفس المتسائلة في عقلك وتذوب في محيط الجماعة حواليك فهم أعرف منك وأدرى بمصلحتك، تاريخهم يرسم لك خط حياتك والى أي مدى يمكن أن تطلق عنان تفكيرك، يروّضونك بتراثهم ويدجّنونك بتاريخهم كما يشاؤون. أنت المسكين الذي لم يبلغ أشده ولم يستقم عوده وكأنك طفل لم تبلغ سن الفطام بعد، والأدهى والأمر أنك تعيش عمرك كله وتموت وأنت لم تبلغ الحلم أبدا.

هل عليّ أن أصدق بأمور هي من الغيب لمجرد أن من حولي يصدّق بها دون أن يكون لي رأي في ذلك؟ قد يقول قائل ولكن هناك الكثير من الأشياء التي نصدق بها لأن غيرنا يصدق بها وتوافقنا على ذلك بالرغم من أنها غيب عنا. فأنا مثلا أصدّق بوجود دولة تسمى اليابان بالرغم من أني لم أسافر لها ولم أطأ رجلا فيها. أصدق بوجود تيار كهربائي في سلك ممدود بالرغم من أني لم أره. كل هذه الأشياء صدّقت بها لمجرد أن من حولي يصدق بها. هذا صحيح، لكنك تنسى شيئا هاما وهو أنّ تلك الأشياء كلها قابلة للفحص والتحقق إذا أردت، فبإمكانك مثلا السفر الى اليابان لتتأكد بنفسك أو قياس شدة التيار بجهاز الأميتر للتحقق من وجود الكهرباء به أو حتى لمس السلك مكشوفا إذا أردت المخاطرة، لكنّ الأفكار الغيبية المرتبطة بالأديان غير قابلة للتحقق والفحص إذ أن محلها الإيمان وهو شي متعلق بذات الشخص وليس موضوعا من خارجه. مادام أن تلك الغيبيات هي من الأمور الشخصية البحتة والمتعلقة بالذات فمن حقي أن يكون لي ذاتي الخاصة بي والمستقلة عن الآخرين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تستطيع أن تنكر بعض الحقائق الموضوعية التي تعارف الناس على تصديقها وبإمكانهم التحقق منها دون أن يؤثر ذلك على نمط معيشتك فمثلا تستطيع أن تسافر بالطائرة وتقضي إجازة ممتعة على الطرف الآخر من الأرض ولو لم تصدق بكرويتها، بل بإمكانك أن تحكي لمن حولك عند مسبح الفندق

عن تصورك البسيط للأرض والكون والسماوات بينما قبولك بغيبيات دينك وخضوعك لها في بلدك ستؤثر حتما على اسلوب حياتك وطريقة معاشك منذ ولادتك الى مماتك.

مجتمع المسلمين

عزيزي المسلم،

قد تسألني عن مشاعري اليوم وكيف أعيش وأتدبر أموري في هذا البلد الذي شعاره خدمة الحرمين. يؤلمني أن أجيبك بأني أعيش حياة غيري والذي هو أيضا يعيش حياة غيره دون أن يعي، فأنا مثلُ من وجدَ نفسه في مجتمع يؤمن أفراده ببابا نويل (سانتا كلوز) ويعيشون حياتهم وفق كلام مُنزل من القطب الشمالي يُنسب له، تم نقله لنا بواسطة أحد الأيائل التي تجر مزلاجه ويحيط به بعض الأقزام الظرفاء. عليك أن تعيش يومك منذ أن تصبح وحتى تمسي، وفقَ ما قاله بابا نويل، ترتّل حديثه وتترنم بأناشيده وتلتزم بكلامه وتفعل ما أمرك به وإذا التبسَ عليك أمر ما فيمكنك سؤال لجنة الأقزام الظرفاء، فهم وسيلة التواصل الوحيدة مع بابا نويل في عرشه بالقطب الشمالي. تعيش حياتك بين هؤلاء الناس من دون أن تُبدي رأيك فيما يقال لك عما ينسب لذلك الكائن الغيبي، تلتزم بأقوال لجنة الأقزام وتسلّم لهم أمرك فهُم الموقّعين عن بابا نويل، المرجع الأوحد والأعلى الذي لا يمكن أن تشكّك في وجوده بل عليك أن تتظاهر بأنه مرجعٌ لك أنت أيضا وتسلّم بذلك وتخنع وترضى. تنظر الى أقربائك وأحبابك وأصدقائك بأسى وشفقة وهم منقادون الى تعاليم هذا ال "بابا نويل"، وما يحزّ في نفسك ويؤلمها أنك تساهم معهم في استمرار هذا الجنون وازدهاره وتمريره لغيرك من أبنائك وأبناء الأجيال القادمة باصطناع قبوله والتظاهر بالموافقة عليه والتسليم به مرغما، وكأنّ من حولك يحيا مسيّرا تحت تأثير التنويم المغناطيسي. هذا بالضبط هو شعوري في بلاد الحرمين.

قد تسأل ما الفارق إذن بين مجتمع هكذا أفراده وبين مجتمع من الروبوتات الآلية المتشابهة تسيّرها خوارزميات صنعها فريق من المبرمجين. تلك الخوارزميات التي تسيّرنا هي ما ألقاه في وعينا أهلونا ومجتمعنا وبيئتنا التي نشأنا فيها منذ نعومة أظفارنا، أما المبرمجون فهم أولئك الكهنة ورجال الدين ومن صفّ صفهم ومن وقف خلفهم من الساسة المنتفعين. نحن ولدنا أحرارا ونعيش أحرارا حتى تأتي تلك اللحظة التي نبدأ عندها في تقمّص أشخاصٍ آخرين دون وعي منا والتلبّس بأفكار غيرنا دون فحص، وترديد ما يقال لنا دون نظر. حينها يتحول الإنسان فينا الى ما يشبه الروبوت، مفتاح التحكم فيه هو من خارج وعيه وعند غيره. نحن أحرار ما دمنا نستخدم عقولنا المفكرة بأنفسنا، نحن أحرار ما دمنا نتساءل قبل أن نتوافق، نحن أحرار مادام لنا الحق في أن نختلف ونعلن عن ذلك بأعلى صوت دون أن نمسّ أحدا أو نصادر حقه في أن يختلف معنا هو الآخر. من المؤسف أن مفهوم الحرية هذا مُغيّب عن ثقافة الفرد العربي وخارج وجدانه الديني مع أن جذوره الأبيّة ذات الكبرياء والضاربة في عمق الصحراء تتنفس عبيرها دون حدود حتى أتى الإسلام وقيّدها بعد أن كانت عزيزة غالية عند الإنسان العربي كما يبدو ويظهر في مروياته وأشعاره القديمة ثم اختزلها فقهاء الدين وكهنوته وقت التدوين وربطوا مفهومها بالتكليف في مقابل العبودية، واليوم يكمل الفكر الديني المعاصر حملته ليلطخ سمعتها ويجعلها شتيمة لمن ينادي بها ويصمه بأسوأ الألفاظ وكأنه يدعو لموقع إباحي أو دار خنا.

لا تملك الشعوب العربية مصيرها بنفسها بعد، بل تملكه بدلا عنها مجموعات متنفذه انتهازية وظّفت ما تم بثه في العقل الجمعي لتلك الشعوب من غيبيات وأساطير وخرافة لمصلحتها الآنية ولا يمكن أن نتوقع تغير تلك المجموعة وفقدها لمصالحها الشخصية ما لم تتغير الشعوب أنفسها، فكما تكونوا يُولّى عليكم والناس ليسوا على دين ملوكهم كما يُقال إلا بقدر ما سمحوا لملوكهم باستغلالهم. وما حال الثورات العربية عنا ببعيد فهي وإن ظنت أنها غيّرت أولئك الذين في رأس الهرم إلا أنها استبدلتهم بآخرين مثلهم ولكن الشعوب

بقيت كماهي . . لم تتغير. الثورة الحقيقية هي ثورة الشعوب على نفسها قبل أن تكون على من يقودها . . ثورة على ما تم زرعه في عقلها الجمعي من خرافات وأساطير عبر قرون من الزمن . . ثورة على كل ما يخالف العقل والمنطق والحس الإنساني. الشعوب العربية تبدو اليوم وكأنها لم تبلغ الحلم بعد ومن يقودهم إنما هم أناس مثلهم ومنهم ونتاج لمجتمعاتهم المغيّبة، هم يعيشون في الألفية الثالثة وعقولهم معلقة بالألفية الأولى يستقون منها معارفهم وقيمهم ومبادئهم بينما كثير من الشعوب الغربية ومن سار مثلهم، قد نضجوا وشبّوا عن الطوق واستطاعوا أن يمتلكوا مصيرهم بأنفسهم وتعيين نواب عنهم لإدارة شؤون معاشهم ومحاسبتهم عليها. الناس هناك ليسوا على دين ملوكهم بل ملوكهم هم الذين على دين شعوبهم. حتى يحصل ذلك عندنا، علينا أولا أن نُشيع مفهوم الحرية الحقيقي بين الناس . . واعين بجوهرها جديرين بتحمل مسؤولية معانيها، تلك المعاني التي كانت مصدر فخر واعتزاز عند العربي القديم قبل أن يتلّوث مفهومها. أصبح أول ما يخطر ببال المتلقي حين سماع تلك الكلمة هو تتبع الشهوات وارتكاب الموبقات بينما الحرية هي أن تمتلك مصيرك بنفسك وتفكر بعقلك وتقرر بذاتك وتختار ما يناسبك وتحاسب من تنيبه عنك تحت مظلة القوانين العامة التي تحكم علاقاتك بالآخرين. نحن في بلادنا العربية لسنا أحرارا بقدر ما نسمح لأحد أن يفكر عنا ويمتلك مصيرنا ويقرر لنا ثم ينجوا بأفعاله دون محاسبة.

عشت شطرا من حياتي في ستينيات القرن الماضي وسبعيناته ثم شاهدت طوفان المد الديني أو ما يعرف بالصحوة ينتشر بعد ذلك بهدوء في نسيج المجتمع ويتغلغل فيه برعاية الدولة وتحت ناظريها وهي التي وظفته أصلا لمصالحها وصراعاتها سواء بالوكالة عن الحليف الأكبر، الولايات المتحدة أيام الحرب الباردة في نزاعها مع الإتحاد السوفييتي أو حين تم وصمها بالرجعية من قبل بعض جيرانها. زادت حركات الإسلام السياسي قوة واكتسبت زخما وأصبحت تشكل عبئا على الدولة التي تورطت مع ذلك التيار وهي التي أسقتْ نبتته في البدء ووزّعت شتلاته في مختلف أنحاء المعمورة ثم حين اشتدّ عوده ووقعت أحداث الحادي

عشر من سبتمبر تبرّأت منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب وتخلّت عنه بعد أن كانت له راعية ولبراعمه منتجة. بعدها بعقد تقريبا ظهرت حركات الربيع العربي والتي لم يكتب لها النجاح لأن الشعوب لم تكن واعية بعد لتقطف ثمرة الحرية، وكيف تفعل ذلك وهي لا تعرف قيمتها بعد؟ الشعوب العربية مازالت مهووسة بالدين والخرافات والغيبيات وما وراء الطبيعة، منفصلين في ذلك عن الواقع والمنطق. حتى المثقفين والمتعلمين منهم لا يبدو أنهم مختلفين عن رجل الشارع الأقل حظا. تجد أحدهم قد تلقى تعليما عاليا بأفضل الجامعات حول العالم، يلتزم بالمنهج العلمي في مختبره ويطلب الدليل ويستدعي البرهان ثم حين يعود لمجتمعه يتنازل عن ذلك كله في أول حضور لمرويات شيخه وأسانيده.

لا يوجد في الإسلام نظاما للحكم سوى إمامة المتغلب عند السنة أو إمامة الغائب عند الشيعة وكل محاولات الإصلاح التي تمّ رسمها للمجتمعات العربية خلال القرون الماضية باءت بالفشل ولم يُكتب لها النجاح وأُلقي اللوم فيها على الآخرين. أحد أهم أسباب التخبّط الذي يعيشه المسلمون اليوم في نظري هو إيمانهم بأن أي حل لما يعانون منه من تردّي وتأخر يمكن أن يأتي من أي مكان إلا من المكان الذي تعشش فيه معتقداتهم الدينية وأي محاولة لاقتحام ذلك العشّ الذي غُزلت فيه تلك الأفكار لمحاولة فهمها وتأثيرها عليهم هي مرفوضة تماما. الإصلاح الديني مُقدّم على كل إصلاح لإن معظم الشرور منشأها القداسة وأول المنتفعين بذلك هي السلطة. أي إصلاح لا يطلق العنان لتفكير الإنسان ويحرّره من مخاوفه محكوم عليه بالفشل لذا لا يمكن أن أتوقع من أي تيار ديني أن ينهض بتلك المهمة لأنه هو من يحتاج للإصلاح. لا يقوم بذلك سوى الإنسان المتجرد من الأيديولوجيا الدينية، فقضيتنا ليست مع الله بل مع الإنسان. قضايانا اليوم هي نفسها منذ أربعة عشر قرنا لم تتغير.. عن حجاب المرأة وحد الردة وتلبس الجن بالإنس وبقية المواضيع التي أُفردت لها المجلدات وحبّرت من أجلها الكتب. قضيتنا يجب ان لا تكون كيف نعبد الله بل كيف يعيش البشر، ليس كيف تعبد الله كأنك تراه بل كيف يعيش الإنسان كأفضل ما تراه. أول خطوات الطريق في ذلك هي إشاعة مفهوم الحريات العامة ورفع قيمة الإنسان وأنه فوق

كل مقدس وكل دين. ببساطة، الإنسان أهم من الله. نعم، إن لم نصل لهذه المرحلة التي نعي فيها أن قيمة الإنسان أهم من قيمة الله فلن يتغير شيء.

لا يمكن توقّع نضجاً في وعي الأفراد بأنفسهم واحترامهم لفردانيتهم التي هي وقود الإبداع والابتكار إذا لم يخفّ الحس الجمعي وتزداد الحريات العامة التي سلبها القرآن من الإنسان "وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم". بدونها لا معنى لأي ثورة أو إصلاح، ولا يمكن اشاعة مفهوم الحرية عندنا بدون تصحيح للفكر الديني قبل أية أفكار أخرى واعادة إصداره على ضوء العلم والمعرفة الحديثة. لا أدعوا هنا الى طمس الفكر الديني تماما بل الى تقنينه وتحييده واحتوائه. ليس لأن هذا صعب أو مستحيل، بل لحاجة البشر اليه فهو مثل المهدئ وتأثيره مثل البلاسيبو. سيظل الناس في حاجة للدين كلما مرض عزيز أو مات قريب أو زمجرت الطبيعة بخسف أو أعاصير أو وباء ... حينها سيتخذ كل انسان ملاذا له وملجأ يهرع اليه مثلما يهرع الطفل حين يسمع صوت الرعد الى حضن ابويه لكن علينا أن نحذر من أن يخرج علينا أحدهم ويتخذ من ملاذه الغيبي وسيلة لدفع الناس له والاحتماء به واملاء صلواته الخاصة به على الآخرين. الملاذ الوحيد الذي ندلّ الناس عليه وقت الكوارث هي الملاجئ المبنية على الأرض وليست تلك الغيبية في السماء ... متى ما دخلوها فليصلّوا بعدها لمن يريدون.

هوس التقديس

عزيزي المسلم،

تخيّل شخصا توفي قبل أكثر من أربعة عشر قرنا . . مطلوبٌ منك أن تُصدّق بكل كلمة قالها وكل حرف نطق به وأن تؤمن بكل غيب أخبر به وأن تعتقد بكل الخيالات التي أتى بها والفانتازيا التي فكّر فيها وأن تضبط بوصلة أخلاقك بناءً

على سلوكه وأن تربط تفاصيل حياتك بتفاصيل حياته ، بغضّ النظر عن كون ما قال أو فعل منطقيا بالنسبة لك أو معقولا في تصورك أو مقبولا لديك . تفعل ما طلب وتتوقف عما نهى ، تلبس ما فصّل لك ، وتأكل ما سمح ، تبيع وتشتري وفق ما حدّد ، تنام وتستيقظ على الوضعية التي دعا لها ، تدخل الحمام وتخرج منه بنفس ترتيب الرجل التي دخل وخرج بها . تعيش حياتك وتموت لا كما تريد أنت في القرن الواحد والعشرين بل كما أراد هو في القرن السابع . تتنفس هواء دنياك لا كما تهوى بل كما يهوى ، تحبه أكثر من أمك وأبيك وزوجك وبنيك بل ونفسك التي بين جنبيك . تُخاصم غيرك بسببه وتطلق زوجتك من أجله وتكره الآخرين تقربا له وتتعارك معهم بل وقد تقتلهم من أجله . أيّ هوس هذا وجنون؟ ثم يأتي أحدهم اليوم من رجال الدين ليصب جام غضبه على مراهقين صبية بسبب تعلقهم بأحد المشاهير من أهل الفن أو الرياضة وتقليدهم له في شكله ولبسه !

أذكر ونحن صغارا علمونا قصة الصحابي الذي قتل أباه في أرض المعركة لأنه ليس على دين نبيه . اُستخدم اسم هذا الصحابي كثيرا في برامج المسابقات وجلسات الألغاز وعُرف بالرجل الذي قتل أباه دليلا على قوة الإيمان والمعتقد ! كان معلمنا يتحدث بفخر ورضا عن ذلك الصحابي الجليل الذي قتل أباه . . تصور قتل أباه لأن رجلا آخر أوحى له بأن هذا هو الصواب ونحن نترضّى على ذلك الصحابي لإذعانه لأمر نبيه بدلا من أن نستقبح ذلك الفعل الذي لا تقبله الفطرة السليمة والعاطفة الإنسانية . لم يستطع وقتها عقلي الصغير أن يستوعب إعجاب المعلم بإنسان يسفك دم غيره فضلا عن أبيه أو قريبه لأن جارا أو صديقا أو نبيا دعاه لذلك ، ولمَ؟ لمجرد أن ما يعتنقه من أفكار غيبية تختلف عن أفكار هذا الصديق أو ذاك النبي ورؤيته للحياة تختلف عن رؤيته . ثم يأتي أحدهم يقرأ علينا من محكم التنزيل "ولا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما "! كبرتُ بعدها وتعرّفت على كمية الشحناء والقتل الذي وقع بين الصحابة أنفسهم وبين المسلمين بعضهم البعض على مدار تاريخهم "المجيد" . قرأت عن رضي الله عنه

الذي قتل رضي الله عنه وعن الاثنين الذين اقتتلا وكلاهما مُبشر بالجنة وعن استحلال مدينة النبي يوم الحرة ليقتل المسلمون فيها صحابة نبيه ويعيثون فيها فسادا . ثم يأتي أحدهم لينزّه أولئك القوم ممّا همْ عليه ويحيطهم بهالة مـــــــــــن القداسة لا يستحقون شيئا منها ويطلب الكفّ عن التساؤل والسؤال وعن تقصي الأحوال في تاريخ صدر الإسلام . كلما خطر ببالك أن تتساءل وتتعجب محاولا أن تفهم ، تصرخ في وجهك الإجابة المعلبة الجاهزة أن الإسلام بريئ من تصرف أهله وسلوك أتباعه ولا ينبغي أن تحكموا عليه من تصرف أصحابه . حسناً ، هل تريدون منا أن نحكم عليه من تصرف الهندوس مثلا أو ربما الكاثوليك؟!

ذكرت سابقا أني مسلم بالوراثة كبقية المسلمين لكني اليوم أنا مسلم بحكم الثقافة التي أنتمي لها بعد أن انعتقت من حمل الورث الديني الثقيل الذي تلبّست به جراء ولادتي في هذه البقعة ، لكني مازلت أسير الثقافة التي نشئت بها وربيت عليها كوني أعيش في مجتمع يدين بالإسلام ولا يمكن أن أعبّر أو أسلك طريقا يخالف الرأي السائد في ظل قيود أقل ما فيها هي الجلد والقتل لمن يتجرأ على النطق بما يعتقد . ستجد الكثير من المسلمين اليوم مستعدين لأن يسامحوك ويغفروا لك زلتك إن كنت "عاصيا" في نظرهم ولو ارتكبت كل فعل ينافي مكارم الأخلاق لكنهم لن يرحموك لو صدرَ منك ما يوحي بعدم قبولك لثوابتهم التي ورثوها وسيصمونك بالتجديف . ما دمتَ مُقراّ بخضوعك لدينهم فسيغفرون لك ارتكابك بعض المحرمات ، أما لو انعتقت من غيبياتهم ومارستَ تفكيرك بحرية ورفضتَ ما يُقال لك ولوْ لم ترتكب أيّ من تلك "المعاصي" في نظرهم فأنت خارج عن الملة مرتد ولا يمكن غفران ذلك لك ، والفتنة أشد من القتل . نعم الخروج من الدين عندهم أشد من قتلك لإنسان بريئ ففي نظرهم أن عدم قبولك بما يعتقدونه هم من غيبيات مع استقامتك وصلاحك هو شرك لا يغفره الله بينما سفك دم إنسان بريئ مسألة فيها نظر حين يتعلق الأمر بمصيرك الأخروي . بإمكانك أن تعلن عصيانك المدني لكن لا يمكن أن تعلن عصيانك الديني . . لو انتقدت حكومة بلدك لربما قضيت وقتا في سجونها لكن لو انتقدت

الرسول أو شيئا من القرآن لربما فقدت حياتك على يد المجتمع المتعطش لهدر دمك. كل هذا التشدد مع من يثير الأسئلة إنما هو لحماية الفكرة الأولى التي زرعها الدين في عقول الناس وأحاطها بسور وهمي غرسه في عقولهم منذ صغرهم ليهوّل من أمر أي إنسان يتجرأ على التشكيك فيه، لاسيما من داخل أهله.

الدين مثل الحشيش . . تاريخهما قديم وضارب في عمق التاريخ وآثارهما متقاربة وأعراضهما متشابهة والإدمان عليهما مضرّ وتعاطيهما باعتدال، لبعض الناس، مفيد. تمّ استخدام الإثنين للسيطرة على الشعوب والتحكم بهم منذ عصور غابرة ومثلما أن المتاجرة بالحشيش اليوم وترويجه ونقله عبر الحدود جريمة، كذلك الدين على أنّ بعض الدول تنبهت الى حاجة بعض الناس للإثنين فقنّنت تعاطي الحشيش على ألا يخرج عن إطار الاستخدام الشخصي ومنعت ترويجه سوى في أماكن مخصصة لبيعه. كذلك فعلت بالدين حين اخترعت مفهوم فصل الدين عن الدولة أو ما يسمى بالعلمانية وقنّنت تعاطيه داخل حدود الاستخدام الشخصي في بيوت اتخذوها لذلك مثل الكنائس أو المعابد على ألا تتعدى سلطة من بداخلها اسوار تلك البيوت. العلمانية وتحييد الدين وفصله عن الدولة ومنع استغلاله أو التلويح والمتاجرة به هي ثاني الخطوات في طريق الإصلاح وهناك من مرويات الدين نفسه ما يشير الى ذلك لمن يريد اصلاحا من داخل البيت. خطورة الشعور الديني هي حينما ينتقل من كونه حالة فردية ذاتية تتعلق بالإنسان وحده يعيشها بنفسه الى هوس جماعي أشبه بالفيروس المعدي . . حين تتغلغل التجربة الشخصية غير الموضوعية والغير قابلة للبرهنة والفحص الى نسيج المجتمع كافة فتشكّل أفكاره ومبادئه، حين يتحول اللامعقول الى معقول والخرافة الى حقيقة والمعجزة الى إعجاز ويتوقف العقل عن السؤال امتثالا ل "إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم." ، حينها يصبح الدين والحشيش سيان.

لا تختلف الأفكار التي يزرعها الدين في روعك عزيزي المسلم عن الفيروسات المعدية فمنها ما هو مفيد مع قلّتها ومنها ما هو ضار بل وقاتل. ما يميّز هذه الفيروسات هو كونها ليست حية بالمعنى الحرفي للحياة إذ هي في منطقة رمادية بين الحياة وعدمها ولا تتكاثر الا من خلال إصابة كائن حي يُعرف بالمُضيف حيث تسيطر تلك الفيروسات على خلايا الجسم المضيف وتعيد برمجتها لصنع المزيد منها كما أن بإمكانها أن تتطور وتتحوّر لتأخذ أشكالا أخرى. كذلك الأفكار الدينية هي ليست حية الا بقدر ما تعشّش في خلايا مخ مُضيفها فهي ميتة لوحدها حين تكون معزولة ولا تبدأ في التنفس والتكاثر حتى تصيب تجاويف دماغ الضحية ثم تسيطر على وعيه قبل تفكيره وتعيد برمجته وهو في سن صغيرة لتكبر معه وتتكاثر ثم ما تلبث أن تعدي الآخرين من بني جنسه لاسيما من نشأ في نفس البيئة. تنتقل الفيروسات من الجسم المضيف لأجسام أخرى لتنتشر العدوى في المجتمعات والبلدان أو حتى العالم بأسره، كذلك تفعل الأفكار. لا يمكن مشاهدة الفيروسات بالمجهر الضوئي لصغرها كما أنها عصية على المضادات الحيوية فلا تقتلها، كذلك الأفكار التي ينشرها الدين لا يمكن رؤيتها رأي العين لكنّ أعراضها واضحة جلية مثل الفيروسات يمكن الشعور بها والإحساس بعواقبها وهي الأخرى عصيّة على الموت لكنها قابلة للاحتواء.

الدين هو كالفيروس الذي يصيب المضيف الا أنه أخطر تأثيرا وأشد وطئا وأطول إقامة وأصعب علاجا. يبدأ في عقل المضيف منذ ولادته حين يُؤذّن في أذنه وتُذبح له تميمته لينمو معه ويصعب الفكاك منه الا بشجاعة ومواجهة حقيقية مع النفس. تعامل البشر منذ القدم مع الأوبئة التي تسببها لهم تلك الفيروسات إذ تظهر الجائحات من وقت لآخر لتحصد الاف الأرواح أو ربما الملايين في فترة قصيرة، أسابيع أو أشهر ثم تختفي فجأة لكنّ فيروس الدين قابع في عقول البشر لم يتزحزح منذ أن بدأ الإنسان القديم في إثارة الأسئلة عن الكون والوجود من حوله ولم يجد لها جوابا. ليس كل فيروسات الدين شرٌّ محض بالطبع فكثيرٌ من أفكاره التي يدعو لها خير ومن مكارم الأخلاق التي يعيها الإنسان العاقل، لكنها حين تسيطر على عقل صاحبها يفقد القدرة على التمييز بين ما هو شر وخير تحت

غطاء القداسة إذ لا يمكن أن تتوقع من إنسان طبيعي محب للخير لنفسه وللآخرين أن يقبل بقطع يد انسان من مفصل الكف أو تقييده ودفنه حتى يبرز رأسه ثم رجمه بالحجارة حتى الموت الا إذا كان مصابا بفيروس الدين .

خاتمة

سافرت مرة الى خارج بلدي وسكنت حينها في شقة صغيرة يجاورني فيها بعض الأصحاب . كانوا يقيمون الصلاة في غرفة صغيرة ملحقة بالمبنى الذي نسكن فيه ، خصّصها لهم مالك المبنى ولندعوه هنا ب "توم" مثلا . . لم أرَ مثله في طيب أخلاقه وحسن تعامله . اتصل بي يوما إمام الجماعة ليطلب مني مشاركتهم في زيارة خاصة الى توم لدعوته الى الإسلام . سألته مترددا بعفوية لم تخطر على بالي آنذاك : ولمَ؟ فأجاب بدون تردد : لعلّ الله أن يهديه على يدينا ويدخل الجنة . في تلك اللحظة تخيّلت لوهلة صاحبي وبيده مفاتيح الجنة التي لا يقف بينها وبين توم سواه ، فيما رب العالمين ينظر إلينا من أعلى منتظرا أن نسلّم بأيدينا مفاتيح جنته الى توم . استشعر صاحبي ترددا من جانبي ليباغتني بسؤاله الذي تمّ تلقينه به . . أولاَ تريدُ حمر النعم التي وعدنا بها نبينا إن اهتدى رجل على يدينا؟ حمرُ النعم لمن لم يسمع بها هي الإبل الحمراء النجيبة وهي في زمن الصحابة كالمرسيدس اليوم ، من النفائس السيّارة . . منْ منا لا يريدها . سألته إن كان سيخبر توم عن مصيره فيما لو غيّر رأيه بعد مدة وارتدّ عن الإسلام مذكرا إياه بأن من نشأ في ذلك البلد لا يقبل المساس بحريته ، ليس فقط في اعتناق ما يشاء بل وتغيير رأيه كما يشاء ، فأجاب بأنه لن يخبره استنادا الى فتوى لشيخه ابن عثيمين من أنه أثناء دعوة غير المسلم لا يخبره بحد الردة حتى لا يكون ذلك سببا في امتناعه عن الدخول في الدين . وقبل أن أعترض بأن هذا من الخداع ردّ بأنه لا يمكن تطبيق ذلك أصلا هنا في هذا البلد . قالها بأسف! اعتذرت منه بلطف وتركته يظفر بحمر النعم لنفسه .

عدت الى شقتي وأنا أفكر ماذا لو أن توم هو الذي تقدم الى صاحبنا ليعرض عليه تبديل دينه من الإسلام الى المسيحية . كيف يا تُرى سيكون وقع ذلك على صاحبي . لم أحتجْ الى إطالة التفكير فقبلها بأسبوعين تقريبا كان يستنكر باستهزاء تطفّل جماعة دينية تنتمي لطائفة شهود يهوه حين طرقوا عليه الباب ليبلغوه بمعتقدهم . لا أعرف دينا يمارس إقحام غيبياته واسلوب حياته على الآخرين مثل الإسلام ، سواء طوعا أو اكراها ، صراحة أو ضمنا . هناك أيضا المسيحية ولكن ما يميز المسلمين هو أنّ ذلك الإقحام يمُارس على مستوى الأفراد المخلصين وغير المخلصين ، المتشدد منهم والمعتدل . الكل يتشوّق لدعوة الآخر لاعتناق نسخته الدينية بينما في المسيحية فإنّ من يمارس ذلك اليوم هم غالبا المؤسسات التبشيرية التي يلعنها المسلمون فيما يقومون هم بالدور نفسه . دعوة المسلمين غيرهم للإسلام تحمل بعضا من ملامح نظام بونزي الهرمي للتسويق وهو لمن لم يسمع به ، شكل من أشكال الاحتيال يتمثل في وعدٍ وفير بالربح ويموّل من تدفق مال العملاء بإغرائهم بالربح الوفير بينما الرابح الوحيد هم قلة من الذين ضحكوا على البقية لتستمر السلسلة تموّل نفسها حتى تنفجر الفقاعة . الفرق الوحيد أن الوعد الذي يقدمه محتالو نظام بونزي هو في الدنيا ويمكن كشفه والتنبؤ بمصيره والترافع ضد محتاليه في المحاكم بينما وعد المسلم لغيره هو في حياة مؤجلة يقبضها لاحقا ، لا يمكن التحقق منها ولا يُلاحق محتاليها .

لن يسمح صاحبي حين يعود الى بلد الحرمين ، لمن هو مثل توم بممارسة شعائر دينه فيما لو جاء هنا ، فضلا عن أن يدعه يبني لجماعته كنيسة أو معبد ، كما سيعمل على إنشاء مراكز "التوعية" كما يسميها للجاليات من أجل توعيتهم حسب زعمه وما أحسبها إلا تلويث لعقولهم بنسخته الدينية المحلية مستغلا ضعفهم وقلة حيلتهم إذ أن أغلب مرتادي تلك المراكز هم من دول الشرق الفقيرة . بماذا تشعر عزيزي المسلم حين ترى غيرك دخلَ دينك وأصبح يعتنق ما تعتنقه أنت من غيبيات؟ أتسبّح بحمد ربك وتستغفره أنه كان توابا وتشعر بالفخر

والاعتزاز؟ هل يجلبُ لك ذلك الراحة والشعور بالأمان النفسي أن تجد هناك من يعتقد مثل اعتقادك عن النبي والحياة الأخرى والجنة والنار، هل تشعر بالرضى حين ترى حياة غيرك مثل حياتك والخيالات التي في رأسه أصبحت مثل تلك التي في رأسك. ما الذي يجعل ذلك منك؟ أتشعر بالأمان والتوحّد مع الآخرين وكأنك سجين في معتقل الأفكار تأنسُ فيه لدخول سجين آخر معك الى خلية سجنك؟ أتشعرُ بنوع من السلوى حين ترى سجينا آخر معك يعتقدُ بمثل ما تعتقده من الفانتازيا وأنك ربما صرت معذورا حين لا تجرؤ على الإفصاح عن تساؤلاتك المتعلقة بدينك والتعبير عنها فمنظر السجناء الجدد الذين يشاركونك أفكارك الغيبية يعطيك الأمان الذي تنشده. هل تتوقف عن التساؤل عن حد الردة مثلا أو ربما قطع الأيدي والرجم ومعاملة المرأة والتعجب من بعض الأحاديث الصحيحة والتشكيك في الروايات الموثوقة التي لا يقبلها عقلك حين ترى الآخرين مثلك يصدقون بها؟

إن كان جوابك بنعم فلا ألومك عزيزي إذ أن غريزة حب البقاء لديك أقوى من حبك للبحث عن الحقيقة، والانتماء الى القطيع أكثر راحة عندك وأمانا من التفكير المستقل فالتفكير بحياد عملية ذهنية مرهقة، وأصعب منها التخلي عن الأفكار المسبقة لا سيما تلك المغلفة بهالة من القداسة. التفكير العميق مُوجع أحيانا ومخيف أحيانا أخرى، مثلُ من ينظر في المرآة ولكن لا ليرى وجهه بل ليكشف عن دواخل نفسه. ليس كالذي ينظر الى وجهه وكأنه جالسٌ مُسترخي على كرسي الحلاق ليصلح له بعض الشعر في ذقنه بل أن تنظر في المرآة وأنت لوحدك مع نفسك بعد أن خلعت عنك ملابس الآراء والمواقف في غرفة مظلمة، تضيئها بشموع المعرفة العقلية لترى أعماق صورتك المنعكسة عن سطح المرآة وتتأمل ما خلف هذا الوجه الذي يكاد يقفز صوبك وتبحث عن نفسك وذاتك تحت تلك التقاسيم والتعرجات التي تغطي بشرتك الخارجية. وأخيرا أتركك لتتأمل تلك الصورة إن كان دينك الذي تؤمن به الآن صدفة جغرافية، يحددها لك المكان الذي ولدت فيه. يكفي أن تتخيل نفسك وقد وُلدت في مكان غير مكانك. ما الذي ستعتنقه حينها من دين وعقيدة؟ يمكنك بالطبع أن تتوقف

وتعود الى ماكنت فيه من الراحة والطمأنينة التي ألفتها داخل سجن أفكار مجتمعك المريح أو أن تبحث بنفسك وترى بعينك وتفكر بعقلك، حينها ستجد أن الحقيقة، والحقيقة وحدها هي التي ستطلق سراحك.